المناهي الشرعية

❊ ❊ ❊

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م

•● k ●•

المناهي الشرعية

مجموعةٌ مِن خُطَب الجُمُعة أُلقِيَت في جامع
الأَميرِ الرَّاحل صاحبِ السُّمو الشَّيخ عِيسى بنِ سَلْمانَ آل خَلِيفَة
رحِمَه اللهُ تعالى

أَلقاهَا الرَّاجِي عَفْوَ رَبِّهِ

راشِدُ بنُ مُحمَّدِ بْنِ فَطِيسٍ الهاجِرِيُّ

حفِظَهُ اللهُ وغَفَرَ لِوالدَيْهِ

خَطِيبُ جامِعِ عِيسى بْنِ سَلمانَ آل خَلِيفَة

الرِّفَاعُ الغَرْبِيُّ - مَمْلَكَةُ البَحْرَيْنِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، حمدَ الشَّاكرينَ الذَّاكرين، التَّالِين لكتاب ربِّنا والمسبِّحِين، وأشهدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ وسلَّم وبارَكَ عليهِ وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

وبَعْدُ، فقَدْ يسَّر اللهُ لِي إلقاءَ مجموعةٍ مِن خُطَبِ الجُمُعةِ في جامِعِ الأَميرِ الرَّاحِلِ صاحبِ السُّمُوِّ الشَّيْخِ عِيسَى بْنِ سَلْمانَ آلِ خَلِيفَةَ -رحمه الله تعالى- فِي مَدِينةِ الرِّفاعِ الغَرْبِيِّ بمَمْلكة البَحْرَيْنِ، تَناولْتُ فِيها المَناهِيَ الشَّرعيَّةَ التِي نَهَى الشَّارِعُ الحَكيمُ عَنْها في ثَلاثِينَ خُطبةً، وقَدْ جَرَتِ العادةُ أنْ أَخطُبَ ارتِجالًا مِن ذَاكِرتِي، فأشارَ عليَّ عددٌ مِنَ الإِخْوةِ الكِرامِ ممَّنَ يَحْضُرُ مَعَنا خُطبةَ الجُمُعةِ أنْ أَقُومَ بتَفريغِها في كِتابٍ لِيَسْهُلَ الوُصولَ إلَيْهَا، فاستعَنْتُ باللهِ وأَخرجْتُها فِي كتابٍ أَسْمَيْتُهُ: «سِلْسلة المَنَاهِي الشَّرعيَّة».

سائِلًا المَوْلَى عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَكتُبَ لِي ولِوالِدَيَّ ولزَوْجَتِي ولأَوْلَادِي ولإِخْوانِي وأَخَوَاتِي أَجْرَهَا وثَوابَها، وأَنْ يُثَقِّلَ بِها مَوازِينَ حَسَناتِنا يومَ نَلقاهُ، وأَنْ يَجْعلَهَا لَنا

صدَقةً جاريَةً، نَنتفِعُ بِهَا فِي دُنيانَا وأُخْرَانَا، وأَنْ يُشْرِكَ معَنا في الأَجْر والثَّوابِ كُلَّ مَن أَسْهمَ وساعَدَ فِي إِخراجِها وطِباعَتِها، وكُلَّ مَن قَرَأَها واطَّلع عَلَيْها، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ. اللهُمَّ آمِينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

وكتبهُ: الراجي عفوَ ربه

راشدُ بنُ محمَّد بن فطيس الهاجري

حفظه الله وغفر لوالديه

الرفاع الغربي - مملكة البحرين ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م

(١)

الحَسَدُ

عِبادَ اللهِ!

يُبتلى الأفرادُ والمُجتمَعاتُ بأدْواءٍ وآفاتٍ تَضُرُّ بدينِ الأفرادِ، وتَضُرُّ بنَسيجِ المُجتمَعاتِ، وإنَّ مِن أضرِّ هذه الآفاتِ وأَخطرِ هذه الأدْواءِ داءُ الحسدِ؛ فإنَّه أَصلُ كلِّ شرٍّ، وسببُ كلِّ قَطيعةٍ.

ويُعرَّفُ الحسدُ: بأنَّه كَراهةُ الإنسانِ لِما أنعَمَ اللهُ به على غيرِهِ مِن النِّعمِ، ورُبَّما سعى الحاسدُ في زوالِ تلكَ النِّعمِ بالقَولِ أو الفِعلِ.

وداءُ الحسدِ سوءُ أدبٍ مع اللهِ عَزَّوَجَلَّ ؛ لأنَّهُ اعتِراضٌ على أمرِهِ وقَدَرِهِ وعَدلِهِ في عَطائِهِ ومَنعِهِ، وصَدَقَ القائلُ حينما قال[1]:

أَلَا قُـلْ لِمَـنْ كَـانَ لِي حَاسِـدًا ... أَتَدْرِي عَـلَى مَـنْ أَسَـأْتَ الأَدَبْ

أَسَـأْتَ عَـلَى اللهِ فِي حُكْمِـهِ ... لِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَـا قَـدْ وَهَـبْ

فَجَـازَاكَ رَبِّي بِـأَنْ زَادَنِي ... وَسَـدَّ عَلَيْـكَ وُجُـوهَ الطَّلَـبْ

(١) الأبيات جميعها نسبها الوطواط في غرر الخصائص الواضحة (ص: ٦٠٣) للمعافى بن زكريا، والبيتين الأول والثاني نسبهما الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء (١/ ٣١٣) لمنصور الفقيه.

وقَد حذَّر نَبيُّنا صَلواتُ ربِّي وسَلامُهُ عليه مِن هذا الدَّاءِ الخَطيرِ، الذي قد أُصيبَتْ به الأُمَمُ السابقةُ فأَهلَكَها، فقالَ صَلواتُ ربِّي وسَلامُه عليه: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ؛ الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»[(١)]، فقال: «دَبَّ إِلَيْكُمْ» فكأَنَّهُ يُصوِّرُ هذا الدَّاءَ بمَخلوقٍ يَدُبُّ على الأرضِ، بل بأعدادٍ كثيرةٍ، ثُم قالَ: «هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»، فداءُ الحسدِ أيضًا يَحلِقُ دينَ صاحِبِهِ، فيَمحَقُ الحَسناتِ كما يَمحَقُ الموسُ شَعَرَ الرَّأسِ.

ولهذا جاءتِ الوَصايا والأوامرُ منه صَلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه، فقالَ ﷺ: «لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[(٢)].

وإنَّ مِن أعظمِ دواعي الحسدِ في المُجتمَعاتِ: هو انفتاحُ الدُّنيا، ثم التَّنافسُ عليها، فرُبَّما تنافسَ الأخُ مع أخيهِ مِن أُمِّهِ وأبيهِ فيَحسُدُهُ لِما فضَّلهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِن صُنوفِ الأفْضالِ، ولِذلكَ حذَّر رسولُ اللهِ صَلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه فقالَ: «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ»، أي: نَحْمدُ اللهُ وَنُثْني عَليهِ، قال صَلَواتُ رَبِّي وسلامُهُ عَليهِ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ!» وهُنا يُخاطِبُ رسولُ اللهِ ﷺ الصَّحابةَ -رضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهُم- الذين عاشوا رَدْحًا مِن الزَّمنِ تحت سَيطرةِ فارسَ والرُّومِ وإذْلالِهِم، يُبشِّرُهُم بأَنَّه

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، باب (٥٦)، رقم (٢٥١٠) من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم (٦٠٦٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن التحاسد والتباغض، رقم (٢٥٥٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ستُفْتَحُ عليهم بلادُ فارسَ والرُّوم، ولكِن حينما تُفْتَحُ عليكم الدُّنيا ستَتغيَّرُ هذه الكلمةُ وتلك الطِّباعُ، ولذلكَ قالَ ﷺ: «تتنافسونَ، ثُمَّ تَتَحاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ»[1]، فإنَّ مِن أعظمِ دواعي الحسدِ هو انفِتاحُ الدُّنيا والتَّنافُسُ عليها.

إنَّ الحاسدُ يقعُ في الحسدِ وهو يَعلمُ أنَّ الحسدَ يَأكُلُ مِن حَسناتِهِ لسَببينِ اثنَينِ:

السببُ الأوَّلُ: كَراهيةُ المَحسودِ وبُغضُهُ والحِقدُ عليهِ؛ لما أَنعَمَ اللهُ به عليه مِن النِّعمِ، وقد ذَكَرَ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا السَّببَ في كِتابِهِ الكريم، قال في سورةِ النِّساءِ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٥٤].

إنَّ الحاسدَ إذا رأى عليك نِعمةً اغتَمَّ وساءَ خاطِرُهُ، وإذا رآكَ قد تَعَثَّرْتَ فَرِحَ بذلك وشَمِتَ، وهذا الذي قالهُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ آلِ عِمرانَ، في تلكَ الآيةِ الواضحةِ البَيِّنةِ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾ [آل عمران:١٢٠] ، ثُم أَرْشدَنا إلَى أفعالٍ تَدْفَعُ ذلك أو تَرْفَعُهُ، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:١٢٠].

وصَدَقَ القائلُ[2]:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الحَسُودِ ... فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.
(٢) البيتان لابن المعتز، انظر: ديوانه (ص: ٣٨٩).

ويَكفيكَ مِن الحاسِدِ أنْ تَعلَمَ أنَّهُ يَغتَمُّ في وَقتِ سُرورِكَ، فيَسوؤُهُ نَجاحُك وتَقدُّمُك وصَلاحُ أبنائِك وتَقدُّمُهم، ويَغتَمُّ لأجلِ ذلكَ، فحينما تَفرَحُ أنت فإنه يَغتَمُّ ويَسْتاءُ.

السببُ الثاني: الكِبرُ، والإعْجابُ بالنَّفسِ، والغُرورُ، فيَغتَرُّ الحاسدُ حينما يرى نِعمَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَتوالى وتأتي تَتْرَى على فُلانٍ، وفيهِ بهذا شَبَهٌ مِن إبليسَ، كما قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا أمَرَ الملائكةَ وإبليسَ بالسجودِ لآدَمَ، امتنَعَ إبليسُ غُرورًا وكِبرًا وحسدًا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ (ص): ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص: ٧٥ - ٧٨].

وكما حصَل من غُـرور المشركين من أهلِ مَكَّةَ والطائفِ، فحينما اختارَ ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَسولَنا مُحَمَّـدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحَملِ الرِّسالةِ[2]، ونزَّلَ عليه القُـرآنَ، حسدوه غُرورًا وكِبرًا لأنَّهُ تَقـدَّمَ عليهم؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُؤَنِّبًا لهُم: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢].

فلمَّا قسَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للنبيِّ ﷺ مِن الخيرِ ما لم يَقسِمْ لهم حَسدوهُ؛ حِقدًا

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٥٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٥٨٠-٥٨٢).

وكِبرًا واستِعلاءً، ويَصْدُق فيهم قولُ الأوَّلِ[١]:

حَسَدُوا الفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ فَالقَوْمُ أَعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ
كَضَرَائِرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا حَسَدًا وَبَغْيًا إِنَّهُ لَدَمِيمُ

فالحسدُ آفةُ الآفاتِ، وأخطرُ الأدْواءِ، والعاقلُ مَن نَظَّفَ قلبَهُ مِن هذا الدَّاءِ الخطيرِ.

ومَعلومٌ مِن عادةِ الآباءِ أنْ يقدِّموا النُّصح لأبنائِهم، فها هو مُعاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرَّجُلُ الدَّاهيةُ يَنصَحُ ابنَهُ ويُوصيهِ قائلًا: «يا بُنَيَّ! إيَّاكَ والحَسَدَ! فإنَّهُ يَتبيَّنُ فيك قبلَ أنْ يَتبيَّنَ في عَدُوِّكَ»[٢].

فليس مِن شيءٍ أَضرَّ مِن الحسدِ؛ لأنَّهُ يَصِلُ إلى الحاسدِ خَمسُ عُقوباتٍ قبلَ أنْ يَصلَ إلى المَحسودِ:

أوَّلُها: غَمٌّ لا يَنقطِعُ، فالحاسِدُ أوَّلُ عُقوباتِهِ غَمٌّ لا يَنقطِعُ.

ثانِيها: مُصيبةٌ لا يُؤجَرُ عليها.

ثالثُها: مَذَمَّةٌ لا يُحمَدُ بها.

رابعُها: أنْ يَسخَطَ عليه الرَّبُّ.

خامسُها: تُغلَقُ عليه أبوابُ التَّوفيقِ.

فلا يُمكِنُ أنْ ترى حاسدًا مُوفَّقًا ولا مُرتاحًا أبدًا؛ لأنَّ القاعدةَ تقولُ: «**لا راحةَ لحَسودٍ**»؛ لأنَّهُ مَشغولٌ بما عند غيرِهِ، ومُتطلِّعٌ إلى ما عند غيرِهِ، فلا يرتاحُ في ليلِهِ ونَهارِهِ.

---

(١) البيتان أبي الأسود الدؤلي، انظر: ديوانه (ص: ٤٠٣).

(٢) ذكره الخادمي في بريقة محمودية (٢/ ٢٥٥).

فتَجِدُ الحاسدَ بعدَ هَذا كُلِّه قاتلًا لنفسِهِ كَمَدًا؛ لما عنَّاها من طُول الفِكر بغَيره وبِما عندَ غيرِه، كما قال الأوَّلُ[1]:

لله دَرُّ الحَسَــــدِ مَـــا أَعْدَلَـــهْ! بَــــدَأَ بِصَــــاحِبِهِ فَقَتَلَــــهْ

⁂

(١) نسبه الوطواط في غرر الخصائص الواضحة (ص: ٦٠٤) لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢)

الإِصْرارُ عَلَى الذَّنْب

عِبادَ اللهِ!

إنَّ مِنَ المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى ربِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنها: الإصرارَ على الذَّنبِ.

والإصرارُ على الذُّنوبِ: هُو الإقامةُ على الذُّنوب وعَدَمُ الإقلاعِ عنها، بتَقديمِ التَّوبةِ والاستغفارِ والنَّدمِ.

والإصرارُ على الذَّنبِ: كبيرةٌ مِن كَبائرِ الذُّنوبِ، ومعلومٌ أنَّ في طَبيعةِ بني آدَمَ وبَشريَّتِه أنْ يَقعَ في الخطأِ، ولا أدلُّ على ذلك ممَّا قالَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ، ففي سُننِ ابنِ ماجَهْ مِن حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[1]، هؤلاءِ الخطَّاؤُونَ نالُوا الخيريَّةَ لا لأنَّهم أخطؤُوا، ولكن لأنَّهم أحدَثوا تَوبةً بعد الخطأِ.

وقد جاءَ في صَحيحِ مُسلِمٍ مِن حَديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ صَلواتُ ربِّي وسَلامُهُ عليه يقولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[2]؛ فخَيريَّتُهم لا لأنَّهم أَذْنَبوا، ولكنَّهم

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم (٢٧٤٩).

أحدَثوا استِغفارًا بعد الذَّنبِ، ولم يُصرُّوا على الذَّنبِ.

فها هي طَبيعةُ البَشرِ، أنَّهم يُخطِئونَ مع إيمانِهم ومع صَلاحِهم، ولا أدَلُّ على ذلك ممَّا جاءَ عند الطَّبرانيِّ في مُعجَمِهِ الكبيرِ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقولُ صَلَواتُ ربِّي وسَلامُهُ عليه: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ، يَعْتَادُهُ الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا، تَوَّابًا، نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[1]، فهكذا طَبيعةُ البَشرِ.

فالإقامةُ على الذَّنبِ، وعدمُ إحداثِ تَوبةٍ واستِغفارٍ بعدَهُ؛ هذا هو الأمرُ العظيمُ، وهذا هو الحِنثُ العظيمُ؛ لذا تَجدُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ صفاتِ المُتَّقينَ الذين وَعَدَهم بالجنَّةِ، ذَكَرَ أنَّ مِن صِفاتِهم أنَّهم إذا فَعلوا الفاحشةَ تابوا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حينما عَدَّدَ صفاتِ المُتَّقينَ كما في سورةِ آلِ عِمرانَ، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٥] ماذا أعدَّ اللهُ لهم بعدَ أنْ فَعلوا فاحشةً وظَلَموا أنفُسَهم ثم أَحْدَثوا تَوبةً، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران:١٣٦].

أمَّا أُولئكَ الذين أقاموا على الذَّنبِ -ولم يَتُوبُوا ولم يَستَغْفِروا- فقدْ ذكَرهمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع أصحابِ الشِّمالِ، فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٤١ - ٤٦].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ رقم١١٨١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧٢٢).

والحِنثُ العظيمُ: هُو الذَّنبُ العظيمُ، وأعظَمُهُ الإشْراكُ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لذا يقولُ حَبيبُنا صلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه، كما جاءَ في مُسندِ أحمدَ مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ: «وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»[(١)].

قالَ العزُّ بنُ عبدِ السلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإصرارُ على الذَّنبِ يَجعَلُ صَغيرَها كبيرًا في الحُكمِ والإثْمِ[(٢)]. فما ظنُّك بالإصرارِ على كَبيرِها؟!

معاشرَ الكِرامِ! سؤالُنا بعد هذا: لماذا يُصِرُّ العبدُ على الذَّنبِ، وهو يَعلَمُ أنَّهُ لو تابَ تابَ اللهُ عليه، ولو استَغفَرَ لغَفَرَ اللهُ له، لماذا يُصِرُّونَ على الذَّنبِ؟!

والجواب: لثلاثةِ أسبابٍ:

أمَّا السببُ الأوَّلُ: فلأنَّهم ما شَبِعوا مِن لَذَّةِ الذَّنبِ، وهكذا يُصرِّحونَ، فيقولُ قائلُهُم: ما شَبِعتُ مِن لَذَّةِ الحرامِ! وما عَلِمَ أنَّ لهذه اللَّذَّةِ عُقْبى، وهي مَرارةُ الذَّنبِ، وقد ذَكَرَ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الصِّنفَ فقالَ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧] وذَكَرَ لنا صِنفًا آخرَ مِن هؤلاءِ الناسِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] سبحانَ اللهِ! هَداهُمُ اللهُ ونَوَّرَ بَصيرَتَهم، ولكنَّهم أبَوْا، فعاقبَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[فصلت:١٧]؛ جزاءً وِفاقًا.

وأمَّا السببُ الثاني: فلأنَّهم يُسوِّفونَ، فيقولونَ: سوفَ نتوبُ، وسوفَ نَستغفِرُ، وسوفَ نُقلِعُ، وما يَعلَمُ أحدُهم أنَّهُ لو أصبَحَ ما أَمْسى، ولو أَمْسى ما

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٤٤).

(٢) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٢٧).

أَصبَحَ؛ لذا تَجدونَ الآياتِ تَتْرَى في كِتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالأمرِ بالمُسارَعةِ إلى التَّوبةِ، والمُسابَقةِ إلى المَغفِرةِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[آل عمران:١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[الحديد:٢١].

رَسولُنا صلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه يقولُ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا»[(١)] ويقولُ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ»[(٢)]؛ لذا صَدَقَ الناظمُ حينما قال يُخاطِبُ هذه النَّفسَ المِسكينةَ، المُغترَّةَ بسَوْفَ، يقولُ[(٣)]:

يَا نَفْسُ تُوبِي فَإِنَّ المَوْتَ قَدْ حَانَ ... وَاعْصِ الهَوَى فَالهَوَى مَا زَالَ فَتَّانَا

أَمَا تَرَيْنَ المَنَايَا كَيْفَ تَلْقُطُنَا ... لَقْطًا فَتُلْحِقُ أُخْرَانَا بِأُولَانَا

فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَيْتٌ نُشَيِّعُهُ ... نَرَى بِمَصْرَعِهِ آثَارَ مَوْتَانَا

وَلَّى الزَّمَانُ وَوَلَّى العُمْرُ فِي عَجَلٍ ... يَكْفِيكَ مَا قَدْ مَضَى قَدْ كَانَ مَا كَانَ

أَمَّا السببُ الثالثُ: فهو صُحبةُ أهلِ السُّوءِ والفُجورِ؛ لأنَّ هؤلاءِ لا يَرْضَوْنَ لك أنْ تُقلِعَ عن الذَّنبِ، وكلما فَكَّرتَ أنْ تتوبَ صدُّوكَ عن التَّوبةِ؛ يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢)، وابن أبي شيبة (١٩/ ٥٨)، والنسائي في الكبرى (١١٨٣٢)، من حديث عمرو بن ميمون مرسلا.
وأخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٦٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) الأبيات ذكرها ابن الجوزي في المدهش (ص: ٣٧٥)، ويوسف بن عبد الهادي في آداب الدعاء (ص: ٢٩٤) ولم ينسباها.

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾[الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

أكثرُ ما يُؤَثِّرُ الصاحبُ في صاحبِهِ في دِينِهِ، ولا تَنْسَ ذلك يا عبدَ اللهِ! يقولُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما جاء في سُننِ أبي داودَ مِن حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»(١).

ولذا نَظَمَها أحدُهم فقال(٢):

عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

يقولُ الخليفةُ الرَّاشدُ عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: لا تُصاحِبِ الفاجرَ؛ فإنَّهُ يُعَلِّمُكَ مِن فُجورِهِ(٣).

ويقولُ الخليفةُ الرَّاشدُ عليُّ بنُ أبي طالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: لا تُصاحِبِ الفاجرَ؛ فإنَّهُ يُزَيِّنُ لك عَمَلَهُ، ويَوَدُّ لو أنَّك مِثلُهُ(٤).

فاللهَ اللهَ في الابتِعادِ عنِ الذُّنُوبِ، والحذَرَ الحذَرَ من الإصرارِ علَيْهَا، فإنَّها أحدُ المناهي الشَّرعيَّةِ التي نهى ربِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٧٨).

(٢) نسبه الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ١٦٦) لعدي بن زيد، والبيت الثاني في ديوان طرفة بن العبد (ص: ٣٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٤١)، وأبي داود في الزهد (٨٣)، وابن أبي عاصم في الزهد (٩١)، والبيهقي (١٠/ ١١٢).

(٤) ذكره الراغب الأصفهاني في الذريعة الى مكارم الشريعة (ص: ٢٥٨).

(٣)

الإِسْرَافُ والتَّبْذِيرُ

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نهى الشارعُ الحكيمُ عنها: الإِسْرافُ والتَّبذيرُ.

وهُمَا: تَجاوُزُ الحدِّ في كلِّ قَولٍ وفِعلٍ واعتقادٍ يَفعَلُهُ الإنسانُ، وهُما: عادةٌ سيِّئةٌ، وتكونُ مِن الفَقيرِ كما تكونُ مِن الغَنيِّ، ولهذَا يقولُ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَنْ أَنْفَقَ مائةَ أَلْفٍ في خَيرٍ فهو ليس بسَرَفٍ، ومَن أَنْفَقَ دِرْهمًا في غيرِ حَقِّهِ فهو سَرَفٌ[1].

معاشرَ الكرامِ! الإسرافُ والتَّبذيرُ له صورٌ مُتعدِّدةٌ، وقد ذَكَرَ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابِهِ الكريمِ أنواعًا مُتعدِّدةً للإسرافِ، أُذَكِّرُ نَفسي وإيَّاكم في هذا المَقامِ ببَعضِها:

١- **الإسرافُ في المَطاعِمِ والمَشاربِ والملابسِ والمَفارِشِ**، وهو الذي يَتبادَرُ إلى الأذْهانِ أوَّلَ ما يُذكَرُ الإسرافُ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

ويُرشِدُ حَبيبُنا صَلواتُ ربِّي وسَلامُهُ عليه إلى الغايةِ نفسِها، فيقولُ كما جاءَ في صحيحِ البُخاريِّ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا**

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٣/ ٧٣).

مَخِيلَةٍ»[١]، والمَخيلةُ: الكِبْرُ.

يقولُ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كُلْ ما اشتَهَيْتَ، والبَسْ ما اشتَهَيْتَ، ما أَخْطَأَتْكَ اثنتانِ: إسرافٌ أو مَخيلةٌ[٢].

وانظرْ إلى زُهدِ الفاروقِ أميرِ المُؤمنينَ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذْ دَخَلَ يومًا على ابنِهِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوَجَدَ بين يَدَيهِ لحمًا، فقال: يا عبدَ اللهِ! ما هذا اللَّحمُ؟ قال: يا أبي اشْتَهَيْتُهُ فاشتَرَيْتُهُ، فقال الفاروقُ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -القاعدةَ الشَّهيرةَ، التي هي مِثالٌ إلى يَومِنا اليومَ-: أوَكُلَّما اشتَهَيْتَ اشتَرَيْتَ؟! أوَكُلَّما اشتَهَيْتَ شيئًا أكلْتَهُ؟! كفى بالمَرءِ سَرَفًا أنْ يأكُلَ كلَّ ما اشتَهاهُ[٣]؛ وهَذا مِن التَّوجيهِ الرَّبانيِّ.

ويقولُ لُقمانُ عليه السلامُ -وهو يُوصي ابنَهُ-: يا بُنَيَّ لا تأكُلْ شِبَعًا على شِبَعٍ؛ فإنَّك إنْ تَنْبِذْهُ للكَلبِ خيرٌ مِن أنْ تأكُلَهُ[٤].

٢- **الإسرافُ في تَصريفِ الشَّهوةِ في الحرامِ**، وقدْ خلَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإنسانَ وجَعَلَ فيهِ الشَّهوةَ مُركَّبةً، وجَعَلَ مَصْرِفَها الوحيدَ: الزَّواجَ الشَّرعيَّ، فإذا تجاوَزَ

---

(١) علقه البخاري: كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، ووصله أحمد (٢/ ١٨١)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة، رقم (٢٥٦٠)، وابن ماجه: كتاب اللباس، باب البس ما شئت، رقم (٣٦٠٥) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) علقه البخاري: كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، ووصله ابن أبي شيبة (٢٥٣٧٥).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٦٩)، وأحمد في الزهد (٦٥١).

(٤) أخرجه وكيع في الزهد (٧٣)، وأحمد في الزهد (٤٠٠).

الإنسانُ هذا المَصرِفَ الشَّرعيَّ الوحيدَ فإنَّهُ قد أَسْرَفَ على نفسِهِ، كما فَعَلَ أُولئكَ الذين انْتَكَسَتْ فِطَرُهم في زَمنِ لوطٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكما يَفعَلُ اليومَ شَبِيهُهم البَغيضُ، مِن مُرَوِّجي هذه الفاحشةِ، يقولُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكايةً عن لوطٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨١] فالقومُ المُسرِفونَ أسرَفوا حينما صَرَّفوا هذه الشَّهوةَ في غيرِ مَحلِّها.

٣- **الإسرافُ في الإنفاقِ**، فلمَّا امتدَحَ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عِبادَ الرَّحمنِ، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧] فأنْفِقْ، ولكنْ لا تُسرِفْ، وتَذَكَّرْ أنَّك إنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِن أنْ تَذَرَهُم عَالَةً يَتكَفَّفونَ الناسَ.

فحينما دَخَلَ نبيُّنا ﷺ على سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، فإذا بسعدٍ يقولُ: يا رسولَ اللهِ أُريدُ أنْ أوصيَ بمالي كُلِّهِ، فأرشدَهُ ﷺ أنْ يوصيَ بالثُّلُثِ، فقال: «**يَا سَعْدُ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»[(١)]، أي: يسألونَ الناسَ بأَكُفِّهم لكَفافِهِم.

٤- **الإسرافُ في المعاصي والذُّنوبِ**، فالعبدُ إذا أذنَبَ فقدْ أسرَفَ، وإذا أكثرَ مِن الذَّنبِ صارَ مِن المُسرفينَ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد ابن خولة، رقم (١٢٩٥)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٥- **الإفسادُ في الأرضِ**، وخيرُ مثالٍ له ذاك الذي يَعبَثُ في المالِ العامِّ، فإذا كان في بيتِهِ تَجِدُهُ لا يُسرِفُ كما يُسرِفُ إذا كان في دائِرتِهِ وعَملِهِ، فهذا مُفسِدٌ، وربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢].

٦- الإسرافُ في الإعْراضِ عن دينِ اللهِ، والبُعدِ عن صِراطِهِ المُستقيمِ، وهذا مِن صورِ الإسرافِ وأخطَرِها وأعظَمِها إثمًا، قال ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن ذاك الرَّجُلِ الذي قال مُعترِضًا لرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥ - ١٢٦]، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

عِبادَ اللهِ!

خذوها قاعدةً: ما دَخَلَ الإسرافُ والتَّبذيرُ في كثيرٍ إلَّا قَلَّلَهُ، وما دَخَلَ حُسنُ التَّدبيرِ في قَليلٍ إلا أثمرَهُ وكثَّرَهُ.

والمُسرفونَ مُتوعَّدونَ بمُثلَّثِ الحِرْمانِ، **فما هو مُثلَّثُ الحِرْمانِ؟**

الحِرْمانُ الأوَّل: إنَّ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ في كتابِهِ الكريمِ الوعيدَ لَمَن أسرَفَ، فتَوعَّدَ المُسرِفَ بحِرمانِهِ مِن مَحبَّتِهِ، وتَوعَّدَ المُسرِفَ بحِرمانِهِ مِن هِدايتِهِ، وتَوعَّدَ المُسرِفَ بحِرمانِهِ مِن النَّجاةِ يومَ القيامةِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابِهِ الكريمِ: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فهذا المسرفُ مَحرومٌ مِن محبَّةِ اللهِ، ولك أنْ تَتصوَّرَ عبدًا يَمشي على الأرضِ يُصبِحُ ويُمسي وهو بَعيدٌ عن مَحبَّةِ اللهِ.

الحِرْمانُ الثَّاني: حِرمانُ الهدايةِ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو يُبيِّنُ هذا الحِرمانَ في مَوضعَينِ في هذه سورةِ غافِرٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٨]، وفي مَوضعٍ آخَرَ يقولُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

الحِرمانُ الثالثُ: حِرمانُ النَّجاةِ، ومعلوم أنَّ العبدَ يَنْجو يومَ القيامةِ حينما يَدخُلُ الجنةَ، أمَّا مَن حُرِمَ ذلك فهو محرومٌ مِن النَّجاةِ، وربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ في سورة غافِرٍ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٣]، فكلُّ مَن تَجاوَز وأسرفَ فإنَّه يُخشَى عليهِ مِن هذِه النِّهاية، نَسأل اللهَ لنا ولكُم السَّلامةَ والعافيةَ.

✖ ⌑ ✖

(٤)

الجَزَعُ والتَّسخُّطُ

مَعاشِرَ الكِرامِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ الَّتي نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنها: الجَزَعُ وَالتَّسَخُّطُ عندَ المُصابِ.

فالجَزَعُ هو أَبلَغُ مِن الحُزْنِ، وضِدُّهُ الصَّبْرُ والرِّضا.

والجَزَعُ حالةٌ إنْسانيَّةٌ، يَقَعُ فيها بَعضُ البَشَرِ عندَ المَصائِبِ، حينَما يَحصُلُ لهم فَقْدُ مَن يُحِبُّونَ؛ مِن نَفسٍ، أو مالٍ، أو وَطَنٍ، أو صِحَّةٍ، أو غيرِ ذلك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[المعارج:١٩ - ٢٣].

يَقولُ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرِهِ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي: إذا أَصابَهُ الضُّرُّ فَزِعَ وجَزِعَ، وانْخَلَعَ قَلبُهُ مِن الرُّعْبِ، وأَيِسَ أنْ يَحصُلَ له بعدَ ذلك خَيرٌ[1].

وهذا الذي أَخبَرَ به رَسولُ اللهِ ﷺ، كما جاءَ في سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ مِن حَديثِ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا

(١) تفسير ابن كثير (١٤/ ١٣٢).

ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[١].

فهذا الجازِعُ المُتَسَخِّطُ فَوَّتَ على نفسِهِ أَجْرَ الصَّبْرِ والاحْتِسابِ، فكانتِ المُصيبةُ مُصيبَتَيْنِ، وهذا هُو الذي أَخبَرَ به أَميرُ المُؤْمنينَ الخَليفةُ الرَّاشِدُ عَليُّ بنُ أبي طالِبٍ رضيَ اللهُ تعالى عنه وأَرْضاهُ، قال: إنْ صَبَرْتَ جَرَى القَلَمُ وأنتَ مَأْجورٌ، وإنْ جَزِعْتَ جَرَى القَلَمُ وأنتَ مَكْسورٌ[٢]. وما أَجمَلَ ما قال!

ومعلومٌ أنَّ الجَزَعَ لا يُغَيِّرُ شَيئًا، فلا يَرُدُّ مَيِّتًا، ولا يُغْني بعدَ خَسارةٍ، وإنَّما يُفَوِّتُ على العَبدِ أَجْرَ الصَّبرِ والاحْتِسابِ؛ لذا لَمَّا وَقَفَ رَسولُنا صَلَواتُ ربِّي وسَلامُهُ عليه، ووَجَدَ ابنَهُ إبْراهيمَ روحُهُ تَقَعْقَعُ، أيْ: تَخْرُجُ روحُهُ وهو في يَدَيْهِ، ثم يَموتُ وهو في يَدَيْهِ، ولا شكَّ أنَّه سيَحْزنُ -والحُزْنُ مَشْروعٌ- فيَقولُ صَلَواتُ ربِّي وسَلامُهُ عليه: **«تَدْمَعُ العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ»**[٣]، وفي رِوايةٍ: **«وَمَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»**[٤].

ولهذَا يَقولُ ابنُ المُبارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المُصيبةُ واحِدةٌ، فإذا جَزِعَ صاحِبُها صارَتِ اثْنَتَيْنِ:

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣١). وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ١٣٩) بنحوه.

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت، رقم (١٥٨٩) من حديث أسماء بنت يزيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»، رقم (١٣٠٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم (٢٣١٥)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

إحْداهُما: المُصيبةُ.

والثَّانيةُ: ذَهابُ أَجْرِ المُصيبةِ، وهو أَعظَمُ مِن المُصيبةِ[١].

دَعِ الأَيَّـامَ تَفْعَـلُ مَـا تَشَـاءُ وَطِـبْ نَفْسًـا إِذَا حَكَـمَ القَضَـاءُ

وَلَا تَجْـزَعْ لِحَادِثَـةِ اللَّيَـالِي فَـمَا لِحَـوَادِثِ الـدُّنْيَا بَقَـاءُ[٢]

ويَحصُلُ الجَزَعُ لِثَلاثةِ أَسْبابٍ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: دوامُ استِذْكارِ المُصابِ، فإذا استَذْكَرَ الإنْسانُ المُصابُ مُصيبَتَهُ ومُصابَهُ تَجَدَّدَتِ الأَحْزانُ في قَلبِهِ، وقد حَفِظَتِ العَرَبُ شَطْرًا مِن بَيتٍ في قَصيدةٍ، ذَهَبَ فيها مَثَلًا يُضرَبُ:

..... وَلَا يَبْعَثُ الأَحْزَانَ مِثْلُ التَّذَكُّرِ[٣]

وهذا الذي قالَهُ أَميرُ المُؤْمنينَ الخَليفةُ الرَّاشِدُ الفاروقُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيثُ قال: لا تَسْتَفِزُّوا الدُّموعَ بالتَّذَكُّرِ[٤]!

فعلى الإنْسانِ إذا أُصيبَ بمُصيبةٍ ألَّا يَعزِلَ نفسَهُ عنِ النَّاسِ، وألَّا يَنزَوِيَ في زاويةٍ في بَيتِهِ، فيَقطَعَ اتِّصالَهُ بالنَّاسِ، وإنَّما لِيَخْرُجْ مع النَّاسِ، ويَتَحَدَّثُ معهم، فهذا يُعَزِّيهِ، وهذا يُسَلِّيهِ، وهذا يَفتَحُ له بابًا مِن الأَمَلِ.

وقدْ ماتَ ابنٌ لعَبدِ الرَّحْمنِ بنِ مَهْديٍّ، فحَزِنَ عليه حُزنًا شَديدًا، فكَتَبَ له

---

(١) ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين (ص:٢٦٣).

(٢) البيتان للشافعي، انظر: ديوانه (ص:٣٥).

(٣) عجز بيت لليلى الأخيلية، انظر: ديوانها (ص:٧١).

(٤) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص:٢٩٧).

عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيزِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رِسالةً، ذَكَرَ فيها أَبْياتًا -وهذه الأَبْياتُ أيضًا تُنسَبُ للإمامِ الشَّافِعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يَقولُ:

إِنِّي أُعَزِّيــكَ لَا أَنِّي عَــلَى طَمَــعٍ ... مِــنَ الخُلُــودِ وَلَكِــنْ سُــنَّةُ الــدِّينِ

فَــمَا المُعَــزِّى بِبَــاقٍ بَعْــدَ صَــاحِبِهِ ... وَلا المُعَــزَّى، وَإِنْ عَاشَــا إِلَى حِــينِ[1]

السَّبَبُ الثَّاني: كَثْرةُ الشَّكْوى.

فيَشْتَكي المَخْلوقُ الخالِقَ عندَ المَخْلوقِ، ويَقولُ: فَعَلَ بي رَبِّي كذا وكذا، وهذا الذي يُكثِرُ الشَّكْوى، إنَّما يَشْكو خالِقَهُ عندَ الخَلْقِ، وهذا مِن المَعيبِ جدًّا!

ويقولُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج:٥]؛ قالَ الإمامُ القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرِهِ لهذه الآيةِ في سُورةِ المَعارِجِ: والصَّبرُ الجَميلُ: هو الَّذي لا جَزَعَ فيه ولا شَكْوَى لغَيرِ اللهِ[2].

ويَظُنُّ بعضُ النَّاسِ أَنَّهُ إذا اشْتَكَى عندَ غيرِهِ زالَ مُصابُهُ، وما عَلِمَ أَنَّهُ يُفَوِّتُ على نفسِهِ أَجرًا عَظيمًا، قال رَبِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحَديثِ القُدْسيِّ: «**إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ فَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِي، وَأَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ العَمَلَ**»[3].

---

(١) البيتان للشافعي، انظر: ديوانه (ص:١١٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤٨)، وصححه على شرط الشيخين.

إِذَا بُلِيـــتَ فَثِـــقْ بِـــاللهِ وَارْضَ بِـــهِ   إِنَّ الَّـذِي يَكْشِـفُ البَلْـوَى هُـوَ اللهُ
إِذَا قَضَـى اللهُ أَمْـرًا فَاسْتَسْـلِمْ لِقُدْرَتِـهِ   مَــا لِامْـرِئٍ حِيلَـةٌ فِـيمَا قَضـَى اللهُ
اليَــأْسُ يَقْطَـعُ أَحْيَانًــا بِصَــاحِبِهِ   لَا تَجْـزَعَنَّ فَــإِنَّ الصَّــانِعَ اللهُ(١)

السَّبَبُ الثَّالِثُ: هو ما يَظُنُّهُ الجازِعُ مِن أنَّ مُصيبَتَهُ سَتَدومُ، وأنَّ اللَّيلَ لن يَنْجَلي.

وما عَلِمَ أنَّ كُلَّ شيءٍ في الدُّنيا يَبْدَأُ صَغيرًا ثم يَكْبُرُ، إلَّا الْمُصيبةَ، فإنَّها تَبْدَأُ كَبيرةً ثم تَصْغُرُ، تَقولُ أُمُّ سَلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، وَيَقُولُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»، تقولُ أُمُّ سَلَمةَ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ -أيْ: زَوْجُهَا- قُلْتُ: كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللهُ عَلَيَّ خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللهِ ﷺ(٢).

فلا تَيْأَسْ! واعْلَمْ أنَّ بعدَ الظَّلامِ فَجْرًا!

ولا تَتَمارَضْ فإنَّ القاعِدةَ تَقولُ: مَنْ تَمارَضَ مَرِضَ، ومَنْ تَفاقَرَ افْتَقَرَ، ومَنْ تَذَلَّلَ ذُلَّ، ومَنْ تَهاوَنَ هانَ؛ وعليكَ بمَنْ قال: مَنِ اعْتَزَّ عَزَّ، ومَنْ تَشافَى شُفِيَ، ومَنِ اسْتَغْنَى أَغْناهُ اللهُ.

---

(١) الأبيات ذكرها الأبشيهي في المستطرف (ص:٣١٩) باختلاف يسير في الألفاظ.
(٢) أخرجه مسلم: كتاب: الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

(٥)

دُنُوُّ الهِمَّةِ

عِبادَ اللهِ!

مِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نهى ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنها: دُنُوُّ الهِمَّةِ، وهُو ضعفُ النَّفسِ عن طلبِ المَراتبِ العاليةِ، وإيثارُها للدَّعةِ والرَّاحةِ، ورِضاها بالدُّونِ، وقُعودُها عن المُكرَماتِ، وعن مَعالي الأُمورِ.

وضَعفُ الهِمَّةِ يُقابِلُهُ عُلُوُّ الهِمَّةِ، وقَد نَهَى ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبادَهُ عن ضَعفِ الهِمَّةِ، وجاءَ ذلك بوضوحٍ في كتابِهِ، وعلى لِسانِ رسولِهِ صَلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه، فعند الطَّبرانيِّ في مُعجَمِهِ الكبيرِ مِن حديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقولُ نَبيُّنا ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»[1]، فهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحبُّ معاليَ الأُمورِ، فيحبُّ معاليَ الأخلاقِ، ويَكرَهُ سَفْسافَها، أي: حَقيرَها ودَنيئَها.

وكذلك في صحيحِ مُسلمٍ مِن حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقولُ نَبيُّنا صَلواتُ ربِّي وسَلامُهُ عليه: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ رقم ٥٩٢٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٢٦٦٤).

إنَّ مُقَوِّماتِ عُلُوِّ الهِمَّةِ ثلاثةٌ، مَن أخَذَ بها عَلَتْ هِمَّتُهُ في طاعةِ اللهِ، وهِي:

- **احْرِصْ على ما يَنفَعُك.**
- **واستَعِنْ بالله.**
- **ولا تَعجِزْ.**

يقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِهِ البديعِ «بدائعِ الفَوائِدِ» يقولُ[١]: العِلمُ والعَملُ تَوْأمانِ، أُمُّهُما عُلُوُّ الهِمَّةِ، والجَهلُ والبطالةُ تَوْأمانِ، أُمُّهُما إيثارُ الكسلِ.

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ[٢]

فما أسبابُ دُنُوِّ الهِمَّةِ؟ وما علاجُ هذا الأمرِ الخطيرِ؟

أقولُ: عِلاجُها في مَعرفةِ أسبابِ ضَعفِ الهِمَّةِ ودُنُوِّها، فبِضِدِّها تَتميَّزُ الأشياءُ، وإنْ سألتَ عن أسبابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ، فخُذْها خمسةً:

الأوَّلُ: اقترافُ المعاصي والذُّنوبِ، فالذَّنبُ يُضعِفُ هِمَّتَك، ويُقعِدُك عن معالي الأُمورِ.

يقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامٍ قيِّمٍ في كتابِهِ «الجَوابِ الكافي» قال[٣]: ومِن عُقوباتِها -أي: مِن عُقوباتِ المعاصي والذُّنوبِ-: أنَّها تُضعِفُ سيرَ القَلبِ إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ أو تَعوقُهُ، أو توقِفُهُ أو تَقطَعُهُ عن السَّيرِ، فلا تَدَعُهُ يَخْطو إلى اللهِ خُطوةً، هذا إنْ لم تَرُدَّهُ عن وِجْهَتِهِ إلى ورائِهِ؛ فالذَّنبُ يَحجُبُ الواصلَ، ويَقطَعُ السائرَ، ويُنكِّسُ الطالبَ.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٠٦).

(٢) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص: ٤٨٣).

(٣) الداء والدواء (١/ ١٧٨).

فهذه خُطورةُ الذَّنبِ؛ إمَّا أنْ يُضعِفَ سيرَك، أو يَعوقَهُ، أو يوقِفَهُ، أو يَرُدُّهُ عن وِجْهَتِهِ.

الثاني: الخوفُ والوَهَنُ، فالوَهَنُ إذا أصابَ النُّفوسَ ابتُلِيَتْ بأمرَينِ اثنَينِ؛ وقد أخبَرَ بهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِهِ وسلَّم، فيما جاءَ في سُننِ أبي داودَ حديثُ ثَوْبانَ، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ**»، قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**»[(١)].

ولهذا يقولُ عُمرُ الفاروقُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا تَصْغُرَنَّ هِمَّتُكُم؛ فإنِّي لم أَرَ أَقْعَدَ عنِ المُكرَماتِ مِن صِغَرِ الهِمَمِ[(٢)].

فصِغَرُ الهِمَمِ تَحولُ بينَك وبين المُكرَماتِ في طاعةِ اللهِ ورِضوانِهِ، ورَحِمَ اللهُ أبا القاسمِ الشابِّيَّ التُّونُسيَّ حينما قال في قَصيدتِهِ الشَّهيرةِ[(٣)]:

وَمَنْ يَتَهَيَّبْ صُعُودَ الجِبَالِ يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَرْ

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريدُ لنا بطاعتِهِ العُلُوَّ، ويريدُ لنا هذا الأُفُقَ المُشرِقَ، فمَن تَنكَّبَ الطريقَ فليسَ ثَمَّ إلَّا الدُّنُوُّ، وهذا الطينُ المُعتِمُ، قال ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦] فاللهُ يريدُ له العُلُوَّ وهو يريدُ الدُّنُوَّ، ثُم قال تعالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود: كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم (٤٢٩٧).

(٢) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ٣١٩).

(٣) من قصيدته إرادة الحياة، انظر: ديوانه (ص: ٩٠).

أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:١٧٦].

ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ﴾[التوبة:٤٦] لو أرادوا الخُروجَ مِن هذا النَّفقِ المُظلِم، نَفَقِ المعاصي والذُّنوبِ ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾[التوبة:٤٦] هذا مكانٌ لا تصلُ إليه إلَّا النُّفوسُ الكبيرةُ.

وفي هَذا المعنى قالَ المتنبِّي:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ[١]

وفي عُلُوِّ الهمَّة يقولُ المتنبي أيضًا:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومِ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونِ النُّجُومِ[٢]

الثالثُ: العيشُ على الأمانيِّ، فكثيرٌ مِن الناسِ يعيشُ على الأُمنيَاتِ، والأمنيَاتُ رأسُ أموالِ المَفاليسِ، ويقولُ ربِّي عن الأمانيِّ: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾[النساء:١٢٣ - ١٢٤]، فالعِبرةُ بالعملِ لا بالأمانيِّ.

ورَحِمَ اللهُ شوقيًّا حينما قال[٣]:

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص: ٢٦١).

(٢) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص: ٢٣٢).

(٣) انظر: ديوان أحمد شوقي (١/ ٧١).

وَمَـــا نَيْـــلُ المَطَالِـــبِ بِـــالتَّمَنِّي وَلَكِـــنْ تُؤْخَـــذُ الـــدُّنْيَا غِلَابَـــا

ويقول آخَرُ[(١)]:

وَاتْرُكْ مُنَى النَّفْسِ لَا تَحْسَبْهُ يُشْبِعُهَا إِنَّ المُنَـــى رَأْسُ أَمْـــوَالِ المَفَـــالِيسِ

الرابعُ: مُصاحَبةُ الكُسالى البطَّالينَ، وهِي مِن أسبابِ دُنُوِّ الهِمَّةِ، ومعلومٌ أنَّ الطبعَ سَرَّاقٌ، وربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[التوبة:٨٧]، فهناك مَن يَرْضى على نفسِهِ أنْ يعيشَ مع الخوالِفِ المُتأخِّرينَ، وهو الذي اختارَ أنْ يعيشَ مع الكُسالى والبطَّالينَ.

ولهذا قالَ بعضُهم[(٢)]:

لَا تَصْـــحَبِ الكَسْـــلَانَ فِي حَالَاتِـــهِ كَـــمْ صَـــالِحٍ بِفَسَـــادِ آخَـــرَ يَفْسُـــدُ

عَـــدْوَى البَلِيـــدِ إِلَى الجَلِيـــدِ سَرِيعَـــةٌ كَـــالجَمْرِ يُوضَـــعُ فِي الرَّمَـــادِ فَيَخْمُـــدُ

فبعضُ الناسِ تراهُ كالجَمرةِ مُتَّقِدًا في طاعةِ اللهِ، مُتَّقِدًا في عُلُوِّ الهِمَّةِ، فيَضَعُ نفسَهُ مع البطَّالينَ الكُسالى، فيَخمُدُ كما يَخمُدُ الجَمرُ إذا وُضِعَ في الرَّمادِ!.

الخامسُ: تَركُ الدُّعاءِ، فمع ما آتى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نبيَّه ﷺ مِن عُلُوِّ الهِمَّةِ، ما كان رَسولُنا صلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه يَترُكُ الدُّعاءَ أبدًا؛ يقولُ أنسٌ: إنَّهُ كان كثيرًا ما كان يَسمَعُ رسولَ اللهِ ﷺ يَدْعو بهذا الدُّعاءِ، يقولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ**

---

(١) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٩٤) بلا نسبة.

(٢) نسبها الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص: ١٢٤)، والماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ١٠٧) لأبي بكر الخوارزمي.

الرِّجَالِ»[1]؛ هذا وهو رسولُ اللهِ ﷺ!.

وليسألْ كلُّ واحدٍ منَّا نفسَهُ: هل دعا بهذا الدُّعاءِ الذي كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ منه؟! فيَتعَوَّذُ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِن العَجزِ والكَسَلِ، وهُما رُكنا ضَعفِ الهِمَّةِ ودُنُوِّها.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة، رقم (٢٨٩٣).

(٦)

حُبُّ الرِّئَاسَةِ والتَّطلُّع إلى الصَّدارةِ

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى الشارعُ الحكيمُ عنها: حُبُّ الرِّئاسةِ، والتَّطلُّعُ إلى الصَّدارةِ فَخرًا ورِياءً، وتَحقيقًا للمَصالحِ الشَّخصيَّةِ.

إنَّ مِن طبائعِ البشرِ أنَّ حالَهم لا يَصلُحُ إلا بإمامٍ يَقودُهم، وأميرٍ يَأْتَمِرونَ إليه، وهذا مِن طبائعِ البشرِ، كما أخْبَرَ بذلك سيِّدُ البَشرِ صَلواتُ ربِّي وسَلامُهُ عليه، فقال: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»[(١)].

وفي هذا المعنى يقول الأَفْوَه الأَوْدِي[(٢)]:

لَا يَصْلُحُ القَوْمُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

وَإِنْ تَوَلَّى سَرَاةُ القَوْمِ أَمْرَهُمُ ... نَمَا عَلى ذاك أَمْرُ القَوْمِ فَازْدَادُوا

تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ ... فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ

وقد جاءَ النَّهيُ في شَرعِنا عن التَّطلُّعِ إلى الرِّئاسةِ والصَّدارةِ فخرًا ورياءً،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، رقم (٢٦٠٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: ديوان الأَفْوَه الأَوْدِي (ص: ٦٦).

وحُبًّا في تحقيقِ المصالحِ الشَّخصيَّةِ، وجاءتِ النصوصُ في ذلك تَتْرَى:

قال ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣].

وفي حديثِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما جاءَ في صحيحِ البُخاريِّ، يقولُ نَبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»[(١)].

وجاءَ في صحيحِ مُسلمٍ أنَّ أبا ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتى النبيَّ ﷺ يَطلُبُ التَّعيينَ، فجاءَ يَطلُبُ أنْ يُعيَّنَ في المكانِ الفُلانيِّ، أو يُرَشِّحُ نفسَهُ لهذا المَوقِعِ، فقال: يا رسولَ اللهِ ألا تَسْتَعْمِلُني؟ فقال نَبيُّنا ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[(٢)].

في روايةٍ أُخرى عندَ مُسلمٍ قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لِنَفْسِي مَا أُحِبُّ لِنَفْسِكَ، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»[(٣)].

إنَّ أبا ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي امتَدَحَهُ رسولُ اللهِ ﷺ مَدحًا بلغَ عَنانَ السماءِ، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا أَظَلَّتِ الخَضْرَاءُ -يعني السماءَ- وَلَا أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ -يعني الأرضَ- أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»[(٤)]، ومع ذلك يقولُ: «إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا» ويقولُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة، رقم (٧١٤٦)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينا، فرأى غيرها خيرا منها، رقم (١٦٥٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (١٨٢٥).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (١٨٢٦).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٨٠١)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل أبي ذر، رقم (١٥٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ»[١].

مَعاشرَ الكرامِ! إنَّ هناك مَظاهرَ لُحبِّي الرِّئاسةِ والصَّدارةِ، وبها تَتعرَّفُ عليهم:

المَظهَرُ الأوَّلُ: الإلحاحُ في طَلَبِها، والانبطاحُ مِن أَجلِها، والنِّطاحُ في سبيلِ الظَّفرِ بها، وبَذلُ ماءِ الوَجهِ في سَبيلِ الحُصولِ عليها.

فتجدُه عندَهُ استعدادٌ أنْ يَفعَلَ كلَّ شيءٍ، بأنْ يَتَمَلَّقَ ويَتسَلَّقَ على جُهودِ الآخرينَ وإنجازاتِهم، ويَتجمَّلَ وَيتوَدَّدَ، وكلُّ ذلك في سبيلِ تَحْصيلِ الرِّئاسةِ والصَّدارةِ.

المَظهَرُ الثاني: أنَّك تَسمَعُ له جَعْجَعةً ولا ترى له طَحينًا، فتَسمَعُ له صوتًا مُدوِّيًا، ولا ترى له عَملًا، ولهذا يقولُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران:١٨٨].

وقد امتَدَحَ رسولُ اللهِ ﷺ ذاك المُسلِمَ الذي أين تَضَعْهُ يَعْمَلْ، فإنْ وَضعتَهُ في الرِّئاسةِ عَمِلَ، وإنْ وَضعتَهُ في الحِراسةِ عَمِلَ، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «طُوبَى لِعَبْدٍ -وطُوبى الجنَّةُ- آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ»[٢].

فأينما تَضَعْهُ فإنه يَعمَلْ ولا يَشترِطُ، وتراهُ عامِلًا في كلِّ مَكانٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (١٨٢٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

المَظهَرُ الثالثُ: أنَّه يَتتَبَّعُ عيوبَ خُصومِهُ ومُنافسيهِ، ويُبرِزُها للعَلَنِ، فيَمدَحُ نفسَهُ على حسابِ الآخَرينَ، وفي هَذا يقولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ القَذَاةَ** -والقَذى: هو الوَسَخُ القليلُ الصَّغيرُ- **فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الجَذْلَ -أَوِ الجِذْعَ- فِي عَيْنِ نَفْسِهِ**»[(١)]. والجَذلُ أو الجِذعُ هو الخَشبةُ الكبيرةُ.

فيَتغاضى عن عُيوبِ نفسِهِ، ويُبرِزُ مَساوئَ الآخرينَ وزلَّاتِهم وإنْ كانت يَسيرةً.

ورَحِمَ اللهُ الفُضيلَ بنَ عِياضٍ رحمةً واسعةً، فقَدْ قال كلامًا أشبَهَ بعقدِ الذَّهبِ، حيث قال: ما أَحَبَّ أحدٌ الرِّئاسةَ إلا حَسَدَ وبَغى، وتَتَبَّعَ عُيوبَ الناسِ، وكَرِهَ أنْ يُذْكَرَ أحدٌ بخيرٍ[(٢)].

وهذا هُو المَرَضُ النفسيُّ فتجدُه حَسودًا، وعنده بَغيٌ، فيُبرِزُ عيوبَ الآخَرينَ، ويَتضايقُ إذا ذُكِرَ الآخَرونَ عنده بخيرٍ.

يقولُ أبو العَتَاهية[(٣)]:

حُبُّ الرِّئَاسَةِ أَطْغَى مَنْ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى بَغَى بَعْضُهُمْ فِيهَا عَلَى بَعْضِ

المَظهَرُ الرَّابعُ: تَرى مُحِبِّي الرِّئاسةِ مَجالِسُهم ومَكاتِبُهم وقُلوبُهم وجِهاتُ الاتِّصالِ بهم مَفْتوحةٌ ومُتاحةٌ، فإذا نالوا الرِّئاسةَ أُغلِقَ كلُّ ذلك، فأُغلِقَتِ المَجالسُ والمَكاتِبُ والمَصالحُ، وهذا الذي به تَتعرَّفُ على مُحِبِّي الرِّئاسةِ فخرًا

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٩٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٩٢)، وابن حبان في صحيحه (٥٧٦١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٩٧١).

(٣) انظر: ديوان أبي العتاهية (ص: ٢٤٢).

ورياءً، وهو مَظهَرٌ لا يَغيبُ ولا يَخفى.

ويرشدنا رَسولُنا ﷺ وهو إرشادٌ عظيمٌ في غايةِ الوُضوحِ والبيانِ، فيقولُ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَاحْتَجَبَ دُونَ خَلَّتِهِمْ وَفَاقَتِهِمْ وَفَقْرِهِمُ احْتَجَبَ اللهُ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَفَقْرِهِ وَفَاقَتِهِ»[1]؛ فمَن احْتَجَبَ منهم اليومَ احْتَجَبَ اللهُ منه يومَ القيامةِ، ومَن أغلَقَ بابَهُ عن أهلِ الحِجا والحاجاتِ أغلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بابَهُ عنهُ يومَ القيامةِ، فلا تَعِدِ الناسَ بما لا تَقدِرُ، ولا تَغُشَّ المُسلمينَ، وكُنْ على بَيِّنةٍ مِن أمرِكَ.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١)، وأبو داود: كتاب الخراج والإمارة، باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية، رقم (٢٩٤٨)، والترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في إمام الرعية، رقم (١٣٣٢) من حديث عمرو بن مرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧)

الرِّيَاءُ

عِبادَ الله!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى الشارعُ الحكيمُ عنها: الرِّياءُ.

وهو أنْ يُظهِرَ العاملُ للناسِ عملَهُ الذي يَتقرَّبُ به إلى اللهِ ويَرْجو ثوابَه، ويَجمَعُ مع هذه النِّيَّةِ نِيَّةَ الثناءِ مِن الناسِ، ونِيَّةَ المدحِ الحاصلِ مِن الناسِ.

فالرِّياءُ: هو التفاتُ القلبِ إلى الخَلقِ مِن أجلِ تَحصيلِ الثناءِ والمَدحِ والجاهِ والمَنصِبِ والأُعْطياتِ، وقَد سمَّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ الشِّركَ الخَفيَّ، وسمَّاهُ شِركَ السَّرائرِ.

وفي سُننِ ابنِ ماجَهْ مِن حديثِ أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ المَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الشِّرْكُ الخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»[1]؛ فيُزَيِّنُ صَلاتَهُ ليُمدَحَ! وليُثنى عليه مِن قِبَلِ الرِّجالِ!.

وسمَّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ شِرْكَ السرائرِ؛ فقد جاءَ في صَحيحِ ابنِ خُزَيْمةَ مِن حديثِ مَحمودِ بنِ لَبيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِيَّاكُمْ**

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، رقم (٤٢٠٤).

وَشِرْكَ السَّرَائِرِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ»[1] فذلك شِركُ السرائرِ.

وحذَّرت نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ مِن الرِّياءِ ونهَتْ عنه، وبيَّنَتْ أنَّهُ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ، وهذِه بعضُ النُّصوصِ في ذلك:

يقولُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]؛ وفي تفسيرِ الطَّبريِّ عن سُفيانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي: لا يُرائي[2].

ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ الإسراءِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨ - ١٩]، فالعاجلةُ: الدُّنيا، والذِي يريدها هو مَن يَبْتَغِي ثوابَها ومَدْحَ الناسِ وثَناءَهم.

ويقولُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ الشُّورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ فاطرٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠]، أتدرونَ مَن الذين يَمكرونَ السَّيِّئاتِ؟

في تفسيرِ ابنِ كثيرٍ عن مُجاهِدٍ وغيرِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: المُراؤُونَ بأعمالِهم هم الذين يَمكرونَ السَّيِّئاتِ؛ مَكروا بالناسِ حينما خَدَعوهم، وأظْهَروا لهم صَلاحَهم

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٩٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٨٧٢).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٤٤٠).

وطاعَتَهم، وما عَلِموا أنَّهم إنَّما يَخْدعونَ أنفُسَهم[١].

ويقولُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديثِ القُدسيِّ، كما جاءَ في صحيحِ مُسلم: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[٢]؛ ولهذا كان عُمرُ الخليفةُ الرَّاشدُ الفاروقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دائمًا يَدْعو ويقولُ: اللَّهُم اجْعَلْ عَملي صالِحًا، واجْعَلْهُ لك خالِصًا، ولا تَجعَلْ لأحَدٍ فيه شيئًا[٣].

معاشِرَ الكرامِ: إنَّ للرِّياءِ آثارًا، وأيَّ آثارٍ! إنَّها آثارٌ خطيرةٌ، سيُعاينُها المُرائي في الدُّنيا قبلَ الآخِرةِ.

١- **أنَّ العملَ يَحبَطُ**، حتى وإنْ عَمِلَ للهِ، لكنَّهُ عَمِلَ شيئًا يسيرًا في هذا العَملِ للناسِ فحَبِطَ العَملُ؛ لأنَّ الله لا يَقبَلُ مِن العَملِ إلَّا ما كان له خالصًا، فهذا مِن آثارِ الرِّياءِ وهو أخطَرُها.

والدليلُ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:٢٦٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: بأعمالِهِ الصَّالِحةِ ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٥ - ١٦].

ويقولُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾

---

(١) تفسير ابن كثير (١١/ ٣١١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٦١٧).

[الفرقان:٢٣] فعندهم أعمالٌ؛ حَجٌّ وصيامٌ وصلاةٌ وصَدقاتٌ، لكنْ لم يَجْعَلْها للهِ، بلْ جَعَلَها للناسِ لكي يقولَ عنه الناسُ: إنَّهُ مُصلٍّ، وإنَّهُ مُزَكٍّ، وما أكثرَ ما يَحُجُّ! وما أكثرَ ما يَعتمِرُ! فيَفرَحُ بذلك، ويَعمَلُ مِن أجلِهِ، ويكون جزاؤه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

ويقولُ رَسولُنا صَلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه: «**وَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعَمَلِ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ**»(١).

٢- **أنَّ المُرائيَ إنَّما يَتشبَّهُ بالمُنافقينَ**؛ فإنَّ مِن صفاتِ المُنافقينَ أنَّهم: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٤٢].

٣- الفَضيحةُ في الآخِرةِ، وهذا الأثرُ أخطَرُها وأفظَعُها، فيُفتَضَحُ هذا الإنسانُ حينما تُبْلى السرائِرُ، ويَعرِفُ الناسُ أنَّ هذا الذي كان يُمَثِّلُ عليهم، ويَتَصَنَّعُ لهم بإظهارِ الصالحاتِ والقُرُباتِ، وأنَّه إنَّما كان يُريدُ منهم ثَناءً ومَدحًا وعَطيَّةً وهِبةً، فيُفتَضَحُ أَمرُهُ في الآخِرةِ.

واقْرَؤوا إنْ شِئتُم قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[الزمر:٤٧]، وكان إذا قَرَأها سُفيانُ الثَّوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: وَيلٌ لأهلِ الرِّياءِ! وَيلٌ لأهلِ الرِّياءِ! وَيلٌ لأهلِ الرِّياءِ! هذه آيَتُهم وقِصَّتُهم(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤)، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٤/ ٣١١) من حديث أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٦٥).

وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا سَيُعْلَمُ سَعْيُهُ إِذَا كُشِفَتْ عِنْدَ الإِلَهِ المَحاصِلُ[(١)]

فكيف يَنْجو العبدُ مِن هذه المَعْصيةِ الخَفيَّةِ والشَّهوةِ الخَفيَّةِ؟

الجوابُ: لا نجاةَ منها إلَّا باللُّجوءِ إلى الله، ولقد أخبَرَنا رسولُ الله ﷺ بهذا السَّبيلِ، فقد جاءَ في كِتابِ الأدبِ المُفرَدِ للإمامِ البُخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن حديثِ مَعقِلِ بنِ يَسارٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ** -يعني الرِّياءَ- **أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**» ثم قال لأبي بَكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ، قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**»[(٢)].

إنَّ هذا الحديثَ يَنبغِي أنْ يُحفَظَ ويُرَدَّد صباحَ مساءَ؛ ففيه النَّجاةُ مِن الوُقوعِ في هذا الشِّركِ الخفيِّ، الذي هو أَخْفى مِن دَبيبِ النَّملِ.

---

(١) البيت للَبِيد بن رَبِيعة، انظر: ديوانه (ص: ٨٥)، باختلاف يسير.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٨)

الظُّلم

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ: الظُّلمُ، وهُو كَبيرةٌ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، وقَد جاءَ الإسلامُ بتَحريمِهِ، وزَجْرِ الظالِمِ، والتَّنفيرِ مِن فِعْلِه.

والأصلُ في بني آدَمَ قابِليَّتُه للظُّلمِ والجَهلِ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

وقال ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأصلُ في بني آدَمَ الظُّلمُ والجَهلُ[(١)]؛ ولهذا يقولُ تلميذُهُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والإنسانُ خُلِقَ في الأصلِ ظَلومًا جَهولًا، لا يَنفَكُّ عن الجَهلِ والظُّلمِ، إلَّا بأنْ يُعلِّمَهُ اللهُ ما يَنفَعُهُ، ويُلهِمَهُ رُشدَهُ[(٢)].

والظُّلمُ أنواعٌ ثلاثةٌ:

١- **نوعٌ يُقصَدُ به الشِّركُ**، فالشِّركُ ظُلمٌ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

٢- **نوعٌ يُقصَدُ به ظُلمُ العبدِ نفسَهُ بالمعاصي والذُّنوبِ**، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٥٧).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٥٨).

﴿فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر:٣٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١١٠].

٣- **نوعٌ يُقصدُ به ظُلْمُ العِبادِ، والتَّعدِّي على حُقوقِهم**، كالتَّعدِّي على دِمائِهم وأعْراضِهم وأمْوالِهم وحُرِّيَّاتِهم.

ومِن ظُلم العِبادِ: أنْ يَظلِمَ العبدُ غيرَهُ مِن الناسِ، كأنْ يُوقِعَ الظُّلمَ على زَوجتِهِ، أو على ولدِهِ، أو على يَتيمٍ عندَهُ، أو على جارِهِ، أو على عامِلٍ، أو على غير ذلك، سواءٌ كانَ ظُلمًا باليدِ، أو ظُلمًا باقتطاعِ الحقوقِ، أو ظُلمًا باللِّسانِ، بالافتراءِ والبُهتانِ؛ وكلُّ ذلك جاءَ الإسلامُ بتحريمِهِ.

ولعظم هذا الأمر جاءت بتَحْريمه وتَجْريمه الكثير من الآيات والأحاديث:

يقولُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠].

ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف:٢٩].

ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢] أي: إنَّما المُؤاخذةُ والعُقوبةُ على الذين يَظلِمونَ الناسَ.

ويقولُ حَبيبُنا رسولُ اللهِ ﷺ: يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويقولُ ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

ويقولُ ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ»[٢]، فلا يَظلِمُهُ هو، ولا يُسلِمُهُ لغيرِهِ يوقِعُ الظُّلمَ عليه؛ لذا كان رَسولَنا ﷺ يَخْشى على نفسِهِ أنْ يَظلِمَ أو يُظلَمَ؛ قالت أُمُّنا أُمُّ سَلَمةَ زوجُهُ المَصونُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَذِلَّ أَوْ أُذَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»[٣]، وهذا وهو رسولُ اللهِ ﷺ! فيَخْشى على نفسِهِ أنْ يَظلِمَ أو يُظلَمَ.

ولذا يقولُ يزيدُ بنُ حكيمٍ: ما هِبتُ أحدًا قطُّ هَيْبَتي رَجُلًا ظَلمتُهُ، وأنا أعلَمُ أَنَّهُ لا ناصرَ له إلَّا اللهُ، يقولُ لي: حَسبَي اللهُ، واللهُ بَيْني وبينَك[٤].

أي: هذا هو الذي أهابُهُ، ذلك الرَّجل الذي أعلَمُ أَنَّهُ لا ناصرَ له عليَّ إلَّا اللهُ، وذلِكَ الفقيرُ الذي قابَلتُهُ بغِنايَ، أو هذا الضعيفُ الذي قابَلتُهُ بقُوَّتي، أو هذا المَغمورُ الذي تكبَّرت علَيْه بجاهي، فيَنتَصِرُ عليَّ باللهِ العزيزِ الجبَّارِ.

مَعاشرَ الكرامِ: إذا تأمَّلتَ الظالمَ وجَدْتَهُ قد حَبَسَ نَفْسَهُ في مُثلَّثِ الحِرمانِ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم، رقم (٢٤٤٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣١٨)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم (٥٠٩٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم (٣٤٢٧)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الضلال، رقم (٥٤٨٦)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته، رقم (٣٨٨٤).

(٤) ذكره الذهبي في الكبائر (ص: ١٠٧).

حِرمانِ الهدايةِ، وحِرمانِ مَحبَّةِ اللهِ، وحِرمانِ الأَمنِ.

أمَّا حرمانُ الهدايةِ: فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٠].

وأمَّا حرمانُ المَحبَّةِ: فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[آل عمران:٥٧].

وأمَّا حرمانُ الأمنِ: فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢].

مَعاشرَ الكرامِ: إذا قرأتَ في كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وجَدْتَ الآياتِ تَتْرَى فيها وعيدٌ شديدٌ للظالمِ، وفيها سَلْوى للمَظْلومِ، كأن ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ للظالمِ: إنِ استَطَعْتَ الفِرارَ في الدُّنيا فاعْلَمْ أنَّ هناك حياةً أُخرى تُسْتَرَدُّ فيها المَظالِمُ والحقوقُ، ويُقالُ للمَظلومِ الذي لم يَستطِعْ أنْ يَنتَزِعَ حقَّهُ في الدُّنيا: لن يَضيعَ لك حَقٌّ في الآخِرةِ.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[إبراهيم:٤٢].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء:٢٢٧].

وقد تَختَلُّ مَنظومةُ حِفظِ الحقوقِ في الدُّنيا فيضيعُ كثيرٌ مِن الحقوقِ، فيَصِيرُ الأمرُ كما قال الأوَّلُ[(١)]:

---

(١) ذكره المعافى بن زكريا في الجليس الصالح (ص: ٧١٢) بإسناده إلى عبد الملك بن عمير، عن رجل من أهل اليمن وجدهما مكتوبين على لوح.

إِذَا جَـــارَ الـــوَزِيرُ وَكَاتِبَـــاهُ وَقَـــاضِي الأَرْضِ دَاهَـــنَ فِي القَضَـــاءِ
فَوَيْـــلٌ ثُـــمَّ وَيْـــلٌ ثُـــمَّ وَيْـــلٌ لِقَـــاضِي الأَرْضِ مِـــنْ قَـــاضِي السَّـــمَاءِ

بَلَغَ هارونَ الرَّشيدَ -الخليفةُ العباسيُّ الرَّجُلُ الصالحُ، الذي ذُكِرَ عنه أَنَّهُ يَحُجُّ في عامٍ ويَغْزو في عامٍ، والذي ذُكِرَ عنه ما ذُكِرَ في صلاتِهِ وخَوفِهِ وخَشيتِهِ مِن اللهِ-؛ ذُكِرَ عنه في يومٍ مِن الأيَّامِ أَنَّهُ سَمِعَ وِشايةً في أبي العَتاهيةِ، وبَعْضُنا قد يَفتَحُ أُذُنَيْهِ للوِشايةِ، ويَسمَعُ قولَ فُلانٍ في فُلانٍ، وهذا مِن أعظَمِ المَصائبِ؛ بأنْ يكونَ الإنسانُ أُذُنًا يَستَمِعُ لما يُقالُ له، ويَتصرَّفُ على إثرِ ما يَستَمِعُ، فسَمِعَ هارونُ وِشايةً في أبي العَتاهيةِ، فأمَرَ بحَبسِهِ، ولم يَتَثَبَّتْ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فما كان مِن أبي العَتاهِيةِ -وهو الشاعرُ- إلَّا أنْ يَكتُبَ قَصيدةً على حائِطِ السِّجنِ، فنَقَلَها الحُرَّاسُ إلى هارونَ الرَّشيدِ، فلمَّا قَرَأَها بَكى بُكاءً شَديدًا؛ لِما فيها مِن المعاني، قال فيها:

أَمَـــا وَاللهِ إِنَّ الظُّلْـــمَ شُـــؤْمٌ وَمَـــا زَالَ المُســـيءُ هُـــوَ الظَّلُـــومُ
إِلَى دَيَّـــانِ يَـــوْمِ الـــدِّينِ نَمْضـــي وَعِنْـــدَ اللهِ تَجْتَمِـــعُ الخُصُـــومُ
سَـــتَعْلَمُ فِي المَعَـــادِ إِنِ التَقَيْنَـــا غَـــدًا عِنْـــدَ المَلِيـــكِ مَـــنِ الظَّلُـــومُ

فاستدعاهُ، وطَلَبَ منه الحِلَّ والعفوَ، وأَجزَلَ له في العطاءَ، وأطلَقَهُ مِن حَبسِهِ[1].

وتذكَّر قولَ القائِلِ:

لَا تَظْلِمَـــنَّ إِذَا كُنْـــتَ مُقْتَـــدِرًا فَـــالظُّلْمُ مَرْتَعُـــهُ يُفْضـــي إِلَى النَّـــدَمِ

(١) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ١٣٨).

تَنَـــامُ عَيْنُـــكَ وَالمَظْلُـــومُ مُنْتَبِـــهٌ يَـــدْعُو عَلَيْـــكَ وَعَـــيْنُ اللهِ لَمْ تَـــنَمِ[١]

وقَد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ! إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ، فَطُرِحَ فِي النَّارِ»[٢] عياذًا باللهِ مِن النارِ!.

والواجبُ فِيمَن كان ظالمًا لغيرِهِ أنْ يَطلُبَ منه الحِلَّ اليومَ، كما فعلَ هارونُ الرَّشيدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنْ كان في حاجةٍ مادِّيَّةٍ رَدَّها، وإنْ كان في حاجةٍ مَعْنويَّةٍ طَلَبَ منه الحِلَّ؛ فإنَّ الأيامَ تَتَصَرَّمُ بما فيها مِن الخيرِ والشرِّ، والعاقِلُ مَن جَعَلَ صَحيفَتَهُ خاليةً مِن حُقوقِ الآخَرينَ.

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب، انظر: ديوانه (ص: ١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٩)

جَرحُ المَشاعِرِ، وكَسرُ الخَواطِرِ

مَعاشِرَ الكِرامِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ، التي نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنها: جَرحُ المَشاعِرِ، وكَسرُ الخَواطِرِ.

وكما نَعلمُ فإنَّ جَبرَ الخَواطِرِ عِبادةٌ يُتَقَرَّبُ بها إلى اللهِ، وأنَّ جَرحَ المَشاعِرِ وكَسرَ الخَواطِرِ ذَنبٌ ومَعْصيةٌ للهِ.

وجَرحُ المَشاعِرِ له أَثَرٌ شَديدٌ، ووَقعٌ على نَفسِ المَرءِ أَكيدٌ، بلْ أَشَدُّ مِن وَقعِها على الجَسَدِ، وإذا كانَتْ مِن أَقرَبِ الأَقرَبينَ -وأَعَزِّهِمْ وأَحَبِّهِمْ- فإنَّها أَشَدُّ إيلامًا، كما قيل:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ[1]

ويكونُ جَرحُ المَشاعِرِ باللِّسانِ وبالفِعلِ، وهو باللِّسانِ أَكثَرُ؛ لذا وَجَبَ على المُسلِمِ أنْ يَحتَرِسَ مِن لِسانِهِ في مَجالِسِهِ، فلا يَجرَحُ به نفسًا مُؤمِنةً؛ فإنَّ جَرحَ النُّفوسِ لا يَبْرَأُ وإنْ تَقادَمَ العَهدُ.

وقَد قال أبو الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْلا ثَلَاثٌ مَا أَحْبَبْتُ العَيْشَ يَومًا واحِدًا:

---

(١) البيت لطرفة بن العبد، انظر: ديوانه (ص٥٢).

الظَّمَأُ للهِ بالهَواجِرِ، والسُّجودُ للهِ في جَوفِ اللَّيلِ، ومُجالَسةُ أَقْوامٍ يَنْتَقونَ مِن خيارِ الكَلامِ كما يُنْتَقى مِن أَطايِبِ الثَّمَرِ[1].

لذا قيل:

تَخَيَّرْ كَلامَكَ قَبْلَ الحَدِيثِ كَمَا تَتَخَيَّرُ أَحْلَى الثَّمَرْ
فَرُبَّ كَلَامٍ شَجَّ الصُّدُورَ وَرُبَّ كَلامٍ لَهَا قَدْ جَبَرْ

وهناك نُفوسٌ لها اعتِباراتٌ أُخرى؛ لأنَّها أَكثَرُ حَساسيَّةً مِن غيرِها، ومَشاعِرُ ينبغي أنْ تُراعَى أَكثَرَ مِن غيرِها؛ كمَشاعِرِ الكِبارِ –قدرًا وفضلًا– والصِّغارِ والضُّعَفاءِ؛ وعلَى رأْسِها مَشاعِرِ الوَالِدَين.

وتَدَبَّرْ ماذا قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو يُرشِدُ الابنَ أنْ يُراعيَ مَشاعِرَ الوالِدِ والوالِدةِ، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤] فأَمَرَكَ بحُسنِ الصُّحبةِ حتَّى وإنْ كانا مُشرِكَينِ.

وإنْ جاهَداكَ وأَمَراكَ أنْ تُشرِكَ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فقد قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

كل ذلِكَ مُراعاةً لَمشاعِرِهم وأَحاسيسِهم، فكلمةُ أُفٍّ تَجرَحُ نُفوسَهُم، وهذا الجُرحُ لا يَندَمِلُ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢٣).

ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا»(١).

وقالَ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا»(٢).

وقال أيضًا: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»(٣).

كذلكَ مُراعاةُ مَشاعِرِ ذَوي الحاجاتِ مِن الفُقَراءِ والمَساكينِ والأَيْتامِ، فإنْ أَعْطَيْتَهُ شيئًا فلا تَجرَحْ مَشاعِرَهُ بكَلِمةٍ؛ فإنَّك إنْ لم تُعطِهِ ولم تُسمِعْهُ خَيرٌ، هكذا قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[البقرة:٢٦٣].

وقد يَأْتيكَ الفَقيرُ وليس عندكَ شيءٌ، فتقولُ: إذا جاءَنا شيءٌ أَعْطَيْناكَ، هكذا وَصَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المَشهَدَ، فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[الإسراء:٢٨]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[الضحى:١٠].

وهناكَ صُوَرٌ مُتَعَدِّدةٌ لجَرحِ المَشاعِرِ، اخترْتُ منها أَربَعَ صُوَرٍ:

الصورةُ الأُولى: مِمَّا يَجرَحُ المَشاعِرَ عَدَمُ رَدِّ السَّلامِ، إمَّا كِبرًا وغُرورًا، أو احتِقارًا للمُسَلِّمِ، أو إرادةَ إغاظَتِهِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤٣)، من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم (١٩٢٠)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم (٤٨٤٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو يُبيِّنُ وُجوبَ الرَّدِّ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦]، وقال رَسولُ اللهِ ﷺ: «خَمْسٌ مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ» وذَكَرَ مِن ذلك: رَدَّ السَّلامِ[(١)].

ولكَ أنْ تَستَشْعِرَ أنَّك تَدخُلُ في مَكانٍ، فتُسَلِّمُ، فلا يُرَدُّ عليك، وتَمُدُّ يَدَيْكَ ولا تُصافَحُ، كم يَقَعُ في نَفسِكَ مِن ذلك؟! فكذلك يَقَعُ في نُفوسِ الآخَرينَ.

الصورةُ الثانيةُ: الغِلظةُ، والفَظاظةُ، وعَدَمُ التَّبَسُّمِ، وعَدَمُ الانبِساطِ والانشِراحِ؛ لذا نَجِدُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قالَ لنَبيِّهِ ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنَّ النَّاسَ يَنفِرونَ مِن الكَثيفِ ولو بَلَغَ في الدِّينِ ما بَلَغَ[(٢)]. والكَثيفُ كما تقولُ مَعاجِمُ اللُّغةِ: هو ثَقيلُ الظِّلِّ[(٣)].

وقد قال ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[(٤)]، وقال أيضًا: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[(٥)].

وقالَ سُفْيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والبَشاشةُ مَصْيَدةُ المَوَدَّةِ، والبِرُّ شَيْءٌ هَيِّنٌ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز رقم (١٢٤٠)، ومسلم: كتاب السلام، باب من حق المسلم، رقم (٢١٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٧١).

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٩١٠)، مادة: «كثف».

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ، رقم (١٩٥٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم (٢٦٢٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَجْهٌ طَلِيقٌ وكَلامٌ لَيِّنٌ[١].

الصورةُ الثالثةُ: النَّصيحةُ في العَلَنِ، فلا تَجْرَحْ أَخاكَ بنُصْحِهِ في العَلَنِ، ولا بوَعظِه في العَلَنِ، وإنَّما اجْعَلْ ذلك سِرًّا.

فقَد قالَ الإمامُ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنْ وَعَظَ أَخاهُ سِرًّا فقَدْ نَصَحَهُ وزانَهُ، ومَنْ وَعَظَهُ عَلانيةً فقَدْ فَضَحَهُ وشانَهُ[٢].

وأَنشَدَ قائِلًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَعَمَّدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِي ... وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الجَمَاعَهْ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِنَ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ
فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي ... فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ[٣]

الصُّورةُ الرَّابعةُ: المَنُّ بالعَطيَّةِ، فإذا أَعْطَيْتَ فلا تَمُنَّ بعَطِيَّتِكَ، ولا تُذَكِّرْهُ بأَنَّك أَعطَيْتَهُ وفَعَلْتَ له، فإذا كان في العَلَنِ فهذا أَشَدُّ إيلامًا.

وقد جاءَتِ الآياتُ تَتْرَى في النَّهيِ عن هذا الخُلُقِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾[البقرة:٢٦٢].

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ،**

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ١٤٠).

(٣) ديوان الإمام الشافعي (ص: ٧٥).

وَالْمُدْمِنُ عَلَى الخَمْرِ، وَالمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى»[(١)].

وقد رأَى ابنُ سِيرينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رَجُلًا، واستَمَعَ إليه وهو يُعَدِّدُ عليه أَفضالَهُ، يقولُ له: فَعَلتُ لك، وفَعَلتُ لك، مانًّا عليه بأُعْطياتِهِ، فقالَ له ابنُ سِيرينَ: اسْكُتْ؛ فلا خَيْرَ في المَعْروفِ إذا أُحْصِيَ[(٢)].

لذا أَنشَدَ الشَّافِعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَبياتًا يقولُ فيها:

رَأَيْتُــكَ تَكْــوِينِي بِمِيسَــمِ مِنَّــةٍ كَأَنَّــكَ كُنْــتَ الأَصْــلَ فِي تَكْــوِينِي
فَـدَعْنِي مِـنَ المَـنِّ الـوَخِيمِ فَلُقْمَـةٌ مِنَ العَيْشِ تَكْفِينِي إِلَى يَوْمِ تَكْفِينِي[(٣)]

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٤)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب المنان بما أعطى، رقم (٢٥٦٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص:٢٠٤).

(٣) ديوان الإمام الشافعي (ص: ١٠٥).

(١٠)

الكَسَلُ والعَجْزُ والتَّراخي والفُتُور

عِبادَ الله!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنها: الكَسَلُ، والعَجْزُ، والتَّراخي، والفُتورُ عمَّا يُصلِحُ أَمرَ الدُّنيا والآخِرةِ.

فإنَّ مِن الآفاتِ التي تَعْتَري جِنسَ الإنْسانِ: الكَسَلَ والعَجْزَ والفُتورَ والتَّراخي، والقُعودَ عنِ المَكْرُماتِ والمُروءاتِ.

ونَجِدُ أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَأمُرُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ قائِلًا: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[الشَّرح:٨] فليس ثَمَّ وُقوفٌ، فإذا فَرَغْتَ مِن أَمرٍ فانْصَبْ في غيرِهِ.

وكذلك يأمُرُ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيقولُ: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[طه:٤٢].

وفي ذلِك يقولُ الشَّيخُ السَّعْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تَفْتُرا ولا تَكْسَلا عن مُداوَمةِ ذِكْرِي، بل استَمِرَّا عليه، والْزَماهُ[١].

والكَسَلُ -كما قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ- هو: التَّثاقُلُ عَمَّا لا يَنْبَغي التَّثاقُلُ عنهُ؛ وذلك لأنَّ النَّفْسَ لا تَنبَعِثُ إلى فِعلِ الخَيرِ وهي قادِرةٌ على ذلك[٢].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٠٦).

(٢) شرح المشكاة (٦/ ١٨٧٢) بتصرف.

وهو يُفَوِّتُ على الإنْسانِ المَصالِحَ الدُّنْيَوِيَّةَ والأُخْرَوِيَّةَ، فكم نَعرفُ مِن شَخصٍ وهُو كما كان قَبْلَ عَشْرِ سَنَواتٍ، لم يَخْطُ خُطوةً إلى الأَمامِ، لا في أَمرِ دينِهِ، ولا في أَمرِ دُنْياهُ؟!

قالَ ابنُ الجَوْزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأيُّ شيءٍ لِمَنْ سَاكَنَ الكَسَلَ! إذا رَأَى أَقْرانَهُ بَرَزُوا في العِلمِ وهو جاهِلٌ، واسْتَغْنَوْا بالتِّجارةِ وهو فَقيرٌ! فهل يَبْقَى للالتِذاذِ بالكَسَلِ والرَّاحةِ مَعنًى؟! لا يَبْقَى لذلك مَعنًى، ولا يُحَصِّلُ صاحِبُهُ شَيئًا[١].

وقد قِيل في نَظمٍ شَعبيٍّ وما أَجمَلَ ما قيلَ:

كم فاتَ رَقَّادَ الضُّحى مِن غَنيمةٍ فاتَتْ ورَقَّادَ الضُّحى ما دَرَى بها

يُرشدُ صاحِبُ هذا القَولِ إلى أنَّ الإنْسانَ إذا فَوَّتَ عليه مَصالِحَ الدُّنيا والآخِرةِ وَجدَ ذلك في الآخِرةِ، حينَما يَتَمايَزُ النَّاسُ، ويُحَصِّلُوا ما عَمِلوا في دُنْياهُم، فقَد تَفُوتُ على الإنْسانِ في ذلِكَ الأُعْطياتُ.

وما أكثرَ ما قيلَ في حَثِّ النَّفسِ على العَمَلِ شِعرًا ونَثْرًا.

قالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنِّي لَأَرى الرَّجُلَ فيُعْجِبُني -أي: يُعجِبُهُ سَمتُهُ ونُطقُهُ- فأَقولُ: هل له حِرْفةٌ؟ فإنْ قالوا: لا، سَقَطَ مِن عَيْني[٢].

وكذلكَ قالَ ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنِّي لَأَبْغَضُ الرَّجُلَ يَكونُ فارِغًا، ليس له شَيءٌ مِن عَمَلِ الدُّنيا ولا عَمَلِ الآخِرةِ[٣].

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٣١٤).

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢٥١٧).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٤١)، وابن أبي شيبة (٣٥٧٠٤)، وأبو داود في الزهد (١٧٤).

والكَسَلُ آفةُ الطَّاعةِ، ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لكُلِّ شَيءٍ آفةٌ؛ فآفةُ العِلمِ النِّسْيانِ، وآفةُ العِبادةِ الكَسَلُ[١].

وحتى تَقْضِي على الكَسَلِ في نَفسِكَ وتَنْتَصِرُ على التَّراخِي عِندَكَ فهذه أَرْبَعُ وَصَايا، فحافِظْ عليها:

الوَصيةُ الأُولى: الذِّكْرُ، والوُضوءُ، والصَّلاةُ عندَ الاستيقاظِ مِن النَّومِ قبلَ صَلاةِ الفَجرِ.

وهذه ليسَتْ وَصِيَّةَ طَبيبٍ، ولا وَصْفةً له، بل هذا إرْشادٌ مِن الوَحيِ، فقَد قالَ النَّبيُّ ﷺ كما جاءَ في «صَحيحِ البُخاريِّ»: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ**» ففي كُلِّ لَيلةٍ يَنامُ فيها أَحَدُنا، يَأْتي الشَّيطانُ ويَعقِدُ ثَلاثَ عُقَدٍ، ويقولُ: عليك لَيلٌ طَويلٌ فارْقُدْ؛ وعلاجُ هَذا كَما قال الصَّادقُ المَصْدوقُ ﷺ: «**فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**»[٢]

فهنا أَرْشَدَكَ الوَحْيُ كيف تَكونُ طَيِّبَ النَّفسِ نَشيطًا، وكيف يَكونُ البَعيدُ خَبيثَ النَّفسِ كَسْلانَ.

الوَصيَّةُ الثَّانيةُ: احْذَرْ مُصاحَبةَ الكُسالَى.

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٦٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع، رقم (٧٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالنَّفسُ في طَبيعَتِها تَميلُ إلى مَأْلوفَاتِها، وإلى مَن شاكَلَها، فمَن وَجَدَ في نَفسِهِ كَسلًا سيَميلُ جَزْمًا إلى الكُسالَى، ومَن وَجَدَ في نفسِهِ قُعودًا وتَراخِيًا سيَميلُ جَزْمًا إليهما.

قال مالِكُ بنُ دينارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وَصِيَّتِهِ للمُغيرةِ بنِ حَبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النَّاسُ أَشْكالٌ، الحَمامُ مع الحَمامِ والغُرابُ مع الغُرابِ والصَّعْوُ مع الصَّعْوِ، وكلٌّ مع شَكْلِهِ[١].

وعليه فأنتَ تُقاسُ في الناسِ بمَنْ تُصاحِبُ، فلتَخترْ صُحبةَ الخَيرِ؛ وقديمًا قيل:

لَا تَصْحَبِ الكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ ... فَكَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ

عَدْوَى البَلِيدِ إِلَى الجَلِيدِ سَرِيعَةٌ ... كَالجَمْرِ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ[٢]

الوَصِيَّة الثَّالثةُ: تَعَرَّفْ على أُجورِ الأَعْمالِ الصَّالحاتِ.

فكُلُّ عَمَلٍ تَتَقَرَّبُ به إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فلَا بُدَّ أنْ تَعرَّفَ على فَضلِهِ وأَجرِهِ؛ فإنَّ ذلك يَبعَثُ في نَفسِكَ النَّشاطَ.

قالَ بِشرُ بنُ الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومَنْ لا يَعْرِفُ ثَوابَ الأَعْمالِ ثَقُلَتْ عليه في جَميعِ الأَحْوالِ[٣].

وقَد ذَكَر النَّبيُّ ﷺ بعضَ العِباداتِ ثُمَّ أَتْبَعها بفَضائلها، وأُذَكِّرْ هاهُنا ببَعْضِها:

---

(١) ذكره الدميري في حياة الحيوان (٢/ ٨٧).

(٢) نسبها الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص: ١٢٤)، والماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ١٠٧) لأبي بكر الخوارزمي.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣٤٩).

قالَ ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا »[١].

وهَذا يومُ الجُمُعةِ، وكم مِن إنْسانٍ نعرفُه ولا يُصَلِّي الجُمُعةَ؟! وكم فوَّتَ هذا الإنْسانُ على نفسِهِ مِن أُجورٍ عَظيمةٍ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَغَسَّلَ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَدَنَا وَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا»[٢].

وأمَّا المَشْيُ إلى الصَّلاةِ المَفْروضةِ المَكْتوبةِ، فيقولُ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ»[٣] أي: كلُّ فَريضةٍ يَذهَبُ إليها -وهِيَ خَمْسةُ فُروضٍ في اليَومِ- فإنَّه يَحصُلُ على خَمْسةِ أُجورٍ، كُلُّ أَجرٍ كأَجْرِ حَاجٍّ مُحرِمٍ، أي: كأَجرِ حَجَّةٍ كامِلةٍ.

وكذلك قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان، رقم (٦١٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٤٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الجمعة، باب ما جاء في فضل الغسل يوم الجمعة، رقم (٤٩٦)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة، رقم (٣٤٥)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب فضل غسل يوم الجمعة، رقم (١٣٨١)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الغسل يوم الجمعة، رقم (١٠٨٧) من حديث أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»[(١)].

فمَن عَرَفَ هذه الأُجورَ نَشِطَتْ نَفسُهُ، وابتَعَدَتْ عن القُعودِ والتَّراخي.

الوَصيَّةُ الرَّابِعةُ: أن تَدْعو اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنْ يُعيذَكَ مِنَ الكَسَلِ.

وقد أَمَرَنا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالدُّعاءِ فقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠].

ورَسولُنا ﷺ وهو مَن هو في عِبادَتِهِ، وقيامِهِ، وإحسانِهِ، ونَشاطِهِ، كانَ يقومُ حتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَماهُ، ومع ذلك يَدْعُو رَبَّهُ قائِلًا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ»[(٢)]، ويَدْعو رَبَّهُ قائِلًا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَالهَرَمِ»[(٣)].

وتَتَساءَلُ: أيُّ عَجزٍ، وأيُّ كَسَلٍ بعدَ ذلك كُلِّه؟!

فهذه وصايا لِمَنْ رامَ النَّشاطَ والجِدةَ في عَمَلِ الدُّنيا والآخِرةِ، وابتَعَدَ عن القُعودِ والتَّراخي.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن، رقم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٥٥) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم، رقم (٦٣٦٨)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر الفتن وغيرها، رقم (٥٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١١)

إيذاءُ الجارِ

مَعاشِرَ الكِرامِ!

مِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنها: إيذاءُ الجارِ، والتَّسَبُّبُ في إغلاقِهِ، وأَذيَّتِهِ، وتَنغيصِ عَيشِهِ عليه.

وقد جاءتِ النُّصوصُ في كِتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وعلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ تُوصي بالإحْسانِ إلى الجارِ، وتُحَذِّرُ مِن مَغبَّةِ إيذائِهِ.

ومِن ذلك ما جاءَ في سُورةِ النِّساءِ، فقَد قَرَنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأَمرَ بعِبادَتِهِ بالإحْسانَ بالجارِ، فقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[النساء:٣٦].

وإذا طالَعْتَ في سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ وفي حياتِهِ، ومُمارَسَتِهِ، وأَخلاقِهِ وَجَدتَهُ الجارَ الصَّالِحَ، مع المُسلِمِ، وغيرِ المُسلِمِ.

فقد جاء في حَديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبيَّ ﷺ رُؤِيَ واقِفًا مع شَخصٍ لا يُعرَفُ وُقوفًا طَويلًا، وقد شقَّ على النَّبيِّ ﷺ، فَسَأَلَهُ الصَّحابةُ الكِرامُ عن هذا

القيام، فقال: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[١].

وكذلك كانت وَصِيَّتُهُ ﷺ وهو في آخِرِ لِقاءٍ -من اللِّقاءاتِ العامَّةَ- جَمَعَهُ بالصَّحابةِ الكِرامِ، ففي حَجَّةِ الوَداعِ ووُفودُ المُسلمينَ تَستَمِعُ إليه، فقد قال أبو أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ ﷺ وهو على ناقَتِهِ الجَدْعاءِ في حَجَّةِ الوَداعِ يقولُ: «أُوصِيكُمْ بِالجَارِ، أُوصِيكُمْ بِالجَارِ، أُوصِيكُمْ بِالجَارِ» قال: حتى أكثرَ، فقُلتُ: إنَّه لَيُوَرِّثُهُ[٢].

وحتَّى تَرتَفِعَ الهِمَمُ، وتَتَحَفَّزَ النُّفوسُ، فإنَّ نَبيَّنا ﷺ ذكَر جائِزةَ مَن أَحسَنَ إلى جارِهِ، بل ذَكَرَ جَوائِزَ:

- مِن ذلك أنَّ هناك ارتباطًا طَرديًّا بين الإيمانِ الواجِبِ والإحسانِ إلى الجارِ، فعندَ التِّرْمِذِيِّ في «سُنَنِهِ» عَن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ: «اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، رقم (٦٠١٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم (٢٦٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ رقم٧٥٢٣)، واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم، رقم (٢٣٠٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم (٤٢١٧).

- وهناكَ جوائز في حديثٍ تعدَّدت رواياتُه وارتَبَطَ مضمونُه بالإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ؛ ففي حَديثِ أبي شُريحٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ**»[(١)]، وفي روايةٍ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ**»[(٢)]، وفي روايةٍ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ**»[(٣)]؛ فلا يَكْفي أن تُحسِنُ إليه، بل وتُكرِمُهُ، وفي المُقابِل لا تُؤْذِه.

- وجائِزةٌ أُخرى ذَكَرَها نَبيُّنا ﷺ أنَّ الإحسانَ إلى الجارِ سَبَبٌ في عمارةِ الدِّيارِ، وسَبَبٌ في زيادةِ الأعمارِ، فالمُجتَمَعاتُ المُتحابَّةُ دارُها عامِرةٌ، وفي هذا حديثُ أُمِّنا عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال ﷺ: «**وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَحُسْنُ الجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ**»[(٤)].

- ومِن الجَوائِزِ أيضًا أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَيَّنَ أنَّ مِعيارَ الخَيريَّةِ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُرتَبِطٌ بالإحسانِ إلى الجارِ، فقَد قال ﷺ: «**خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ**»[(٥)]، فليَتَنافَسْ الجارانِ على الإحسانِ؛ ليَنالا الخَيريَّةَ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فكلَّما كُنتَ أَحسَنَ إلى جارِكَ كُنتَ أَخيرَ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، رقم (٥١٨٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٥)، الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار، رقم (١٩٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكنْ إنْ كانت هُناكَ جَوائِزُ فكذلك هُناكَ عُقوباتٌ ذَكَرَها النَّبيُّ ﷺ يُصابُ بها ذاكَ الذي آذَى جارَهُ، سواءٌ آذاهُ في سَمعِهِ، أو في بَدَنِهِ، أو في وَلَدِهِ، أو في أَهلِ بَيتِهِ، أو في سُمعَتِهِ، وسواءٌ آذاهُ إيذاءً مادِّيًّا، أو مَعنَويًّا، وما عليكَ إلَّا أنْ تَستَمِعَ إلى شَكاوَى النَّاسِ، وكيف يَشْتَكي بَعضُهم مِن بَعضٍ، مِن سُوءِ الجِوارِ.

وهذا رسولُ الله ﷺ يُحَذِّرُ مِن مَغبَّةِ إيذاءِ الجارِ فيقولُ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»(١).

والبَوائِقُ هي: الشُّرورُ والغَوائِلُ والمَخاطِرُ.

فإذا كان جارُكَ الذي بجانِبِكَ لا يَأمَنُ منكَ، ويَخافُ منكَ على بَيتِهِ، وعلى وَلَدِهِ، وعلى أَهلِهِ، وهو في حالةِ قَلَقٍ دائِمٍ مِن أذاكَ، فالنَّبيُّ ﷺ يقولُ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»، فمُجَرَّدُ عَدَمِ الأمنِ قَبْلَ وُصولِ المَخاطِرِ، والأَذى، والشُّرورِ، سَبَبٌ في عَدَمِ دُخولِ الجَنَّةِ.

وسمِعنا كثيرًا ما جاءَ في «مُسنَدِ أحمدَ» مِن حَديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «**هِيَ فِي النَّارِ**»(٢)، والسَّبَبُ في ذلِكَ: أنَّها آذَتْ جِيرانَها بلِسانِها، فكيف لو آذَتْهُم بيَدِها؟! كيف لو آذَتْهُم بفِعلِها، والمَسِّ في أَعراضِهِم؟!

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم (٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا فإنَّ الجارَ تَرتَفِعُ أَسهُمُهُ كلَّما حَسُنَتْ أَخلاقُهُ، ويقولُ القائلُ:

يَلُومُونَنِي أَنْ بِعْتُ بِالرُّخْصِ مَنْزِلِي وَمَا أَبْصَرُوا جَارًا هِنَاكَ يُنَغِّصُ
فَقُلْتُ لَهُمْ: كُفُّوا المَلَامَ فَإِنَّمَا بِجِيرَانِهَا تَغْلُو الدِّيَارُ وَتَرْخُصُ[1]

وفِي حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخبَرَ نَبيُّنا ﷺ عن أوَّلِ خَصمَينِ يومَ القيامةِ فقالَ: «أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ جَارَانِ»[2] يَخْتَصِمانَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، فيَأْتي هذا الجارُ المَظلومُ الذي أُوذِيَ في نفسِهِ وأَهلِهِ ووَلَدِهِ، مُتَعَلِّقًا بجارِهِ، فيَقولُ: يا ربِّ سَلْ هذا فيما آذاني؟!

فهُناكَ الخُصومةُ الأَعظَمُ، خاصَّةً فيمَن آذَى جارَهُ في أَهلِهِ، وفي مَحارِمِهِ، فاعْتَدَى على عِرْضِهِ، وقد يكونُ هذا الجارُ أخًا يَسكُنُ معهُ، فيَخونُهُ في غَيبَتِهِ، أو يكونُ قَريبًا، فيَخونُهُ في أَهلِهِ، فيَنسَلِخُ هذا الإنسانُ مِن إِنْسانِيَّتِهِ إلى شيءٍ أَقرَبَ مِن عالَمِ البَهيمِيَّةِ.

وقَد كانَ مِن المَبادِئِ الأُولى للرَّجُلِ الجاهِلِ في جاهِلِيَّتِه: حِفظُ الجِوارِ، وبالأخصِّ في شَأْنِ النِّساءِ، أَمَا قال الشَّاعِرُ الجاهِلِيُّ:

وأَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا[3]

فهَذا وهُو في جاهِلِيَّةٍ ويَعبُدُ الأَصنامَ، لكنَّهُ يَقولُ: أَغُضُّ طَرْفِي عن جارَتي إذا بَدَتْ حتَّى يُوارِيَ جارَتي مَأْواهَا وهُو منزلُها.

---

(١) البيتان ذكرهما ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٦) ولم ينسبهما.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) البيت لعنترة بن شداد، انظر: ديوانه (ص: ٣٠٨).

وهذا آخَرُ -وإنْ عاشَ في العَصرِ الإسلاميِّ- لكنْ يُكَرِّرُ هذه القيمةَ العاليةَ، يقولُ:

مَـــا ضَرَّ جَـــارًا لي أُجَـــاوِرُهُ أَلَّا يَكُـــونَ عَـــلَى بَابِـــهِ سِـــتْرُ

أُغْضِـــي إِذَا جَـــارَتِي بَـــرَزَتْ حَتَّـــى يُـــوَارِي جَـــارَتِي الخِـــدْرُ[1]

وهكذا يَنْبَغي أنْ يكونَ الجارُ، عَينًا لجارِهِ، وسِترًا له، وحِمايةً في حُضورِهِ وفي غَيبَتِهِ، وإلَّا فالخُصومةُ الكُبرى في يوم القِيامةِ إنْ فُقِدَتْ في دارِ الدُّنيا.

✖ ⌑ ✖

(١) البيت لمسكين الدارمي، انظر: ديوانه (ص: ٤٥).

(١٢)

إساءةُ الظَّنِّ باللهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

عِبادَ الله!

مِن المَناهي الشَّرعيَّةِ الَّتي نهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنها: إساءةُ الظَّنِّ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو مَعصيةٌ، وكَبيرةٌ مِن كَبائِرِ الذُّنوبِ.

وإساءةُ الظَّنِّ باللهِ: معناها أنْ يَظُنَّ المَرءُ باللهِ ما لا يَليقُ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ممَّا يُعارِضُ قَيُّومِيَّتَهُ وكَمالَهُ المُقَدَّسَ، وممَّا يُعارِضُ عَظيمَ شَأنِهِ وسُلطانِهِ، وعَظيمَ جُودِهِ وإحسانِهِ، وعَظيمَ عِلمِهِ، وسَعةَ اطِّلاعِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والسَّببُ الرَّئيسُ في إساءةِ الظَّنِّ باللهِ: هو الإصغاءُ إلى وَساوِسِ الشَّيطانِ، والانْقيادُ إلى أَوامِرِهِ -عِياذًا باللهِ- قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] ؛ فقولُه: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يُخَوِّفُ أولياءَ الشَّيطانِ، الَّذينَ وَالوهُ، وأَصغَوْا إليه، وانْقادُوا إليه، أو: يُخَوِّفُكم أيُّها المُؤْمنونَ بأوليائِهِ.

وقَد جاءَ في «صَحيحِ ابنِ حِبَّانَ» مِن حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَحْمَدِ اللهَ،

وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى، فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ»، ثم تَلا ﷺ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)] [البقرة:٢٦٨].

وإساءةُ الظَّنِّ باللهِ ذَنبٌ مِن أَعظَمِ الذُّنوبِ.

قَال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولم يَجِئْ في القُرآنِ وَعيدٌ أَعظَمُ مِن وَعيدِ مَن ظَنَّ به ظَنَّ السَّوءِ، واقْرَؤُوا قَولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦][(٢)].

وقَال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: إنَّ أَعظَمَ الذُّنوبِ عندَ اللهِ إساءةُ الظَّنِّ به؛ فإنَّ المُسيءَ به الظَّنَّ قد ظَنَّ به خِلافَ كَمالِهِ المُقَدَّسِ، وظنَّ به ما يُعارِضُ أسماءَهُ وصفاتِهِ[(٣)].

والنَّاسُ بين ظَنَّينِ اثْنَينِ:

- **ظَنٌّ مُنْجٍ**: وهو الذي، أَحسَنَ الظَّنَّ باللهِ.
- **ظَنٌّ مُرْدٍ**: وهو الذي أَساءَ الظَّنَّ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لذا نَجِدُ سُفيانَ الثَّوريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ مُقَرِّرًا في هذه المسألةِ عِبارةً جَميلةً، قال: يومَ القيامةِ ما أُحِبُّ أَنْ يُجْعَلَ حِسابِي إلى والِدَيَّ، رَبِّي خَيرٌ لي مِن وَالِدَيَّ[(٤)].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٨٨)، وابن حبان رقم (٩٩٧). وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٥٦-١٣٥٧).

(٣) الداء والدواء (ص:٣١٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (١/ ٢٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٨).

وتَدَبَّرْ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو يُبَيِّنُ لنا ذلك المَشهَدَ في غَزوةِ أُحُدٍ، حِين تكلَّم عن الطَّائِفةِ المُؤمِنةِ التي أَحسَنَتِ الظَّنَّ باللهِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران:١٥٤].

ولهذا كانَتْ وَصِيَّتُهُ ﷺ، كما قال جابرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «صَحيحِ مُسلِمٍ»: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ»(١).

وفي الحديثِ القُدْسيِّ: يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ»(٢)، ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديثِ القُدْسيِّ أيضًا: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»(٣).

ومعَ ذَلِك فهناكَ مَن يُخَوِّفُ الناسَ، فيُخَوِّفُ مِن غَدٍ قادمٍ، ويُخَوِّفُ في الرِّزْقِ، ويُخَوِّفُ في الأَمنِ، ويُخَوِّفُ في الوَلَدِ؛ فأمَّا المُؤْمِنُ الذي أَحسَنَ الظَّنَّ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأحسَنَ العَمَلَ: فتراهُ مُطمَئِنًّا هادِئًا غيرَ مُضطَرِبٍ، وأما الذي أَساءَ الظَّنَّ باللهِ فتَراهُ مَهْمومًا، مُنكَسِرًا، خائِفًا، مُضطَرِبًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١)، وابن حبان (٦٣٣) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقدْ خُوِّفَ الصَّحابةُ -رضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهُم- في أَعقابِ غَزوةِ أُحُدٍ، كمَا قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهُم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

ولسُوءِ الظَّنِّ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آثارٌ مترتبةٌ عَليه، أذكرُ مِنها ثَلاثًا:

الأَثرُ الأَوَّل: الانحِرافُ، والوُقوعُ في الضَّلالِ والشِّركِ.

وهُو أَخطَرُ ما يُهَدِّدُ مَن أساءَ الظَّنَّ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأكثرُ ما وَقَعَ النَّاسُ في ضَلالٍ وشِركٍ وانحِرافٍ بسببِ سُوءِ ظَنِّهِم باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو أَنَّهم أَحسَنوا الظَّنَّ باللهِ ما وَقَعوا في هذا الانحِرافِ.

وانظُر ماذا قال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يَتَحَدَّثُ مع أبيه وقومِهِ، كمَا قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنهُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٥ - ٨٧] أي: ظَنُّكُم هذا هو الذي أَرْداكُم في هذه العِبادةِ الباطلةِ.

وقَد قَال المِقْريزيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في رَسائِلِهِ كَلامًا في غايةِ الجمالِ والرَّوعةِ، قال: واعْلَمْ أَنَّك إذا تَأَمَّلْتَ في جَميعِ طَوائِفِ الضَّلالِ والبِدَعِ وَجَدْتَ أَصلَ ضَلالِهِمْ راجعًا إلى شَيْئَينِ:

أحدُهُما: الظَّنُّ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ.

والثَّاني: أَنَّهُم لم يَقْدِرُوا الرَّبَّ حقَّ قَدرِهِ[1].

---

(١) رسائل المقريزي (ص:١٠٢).

الأَثَرُ الثَّاني: إساءةُ العَمَلِ.

فمَن أساءَ الظَّنَّ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أساءَ العَمَلَ إلى حَدِّ الانحِرافِ، فقد قَال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آياتٍ أَرْسَلَها لِقِوامِنا وزَكاتِنا وهِدايَتِنا: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[فصلت:٢٢ - ٢٣].

وقالَ الحَسَنُ البَصْريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّما عَمَلُ النَّاسِ على قَدْرِ ظُنُونِهِم برَبِّهِمْ، فأمَّا المُؤْمِنُ فأَحسَنَ الظَّنَّ باللهِ فأَحسَنَ العَمَلَ، وأمَّا الكافِرُ والمُنافِقُ فأَساءَ الظَّنَّ فأَساءَ العَمَلَ[(١)].

الأَثَرُ الثالثُ: حُصولُ المَكروهُ.

وهو خَطيرٌ جِدًّا، فقد يقولُ أَحَدُنا -وهو لا يَشعُرُ- في ولدِهِ: لا أَظُنُّ أنَّ اللهَ هَداكَ، أو لا أَظُنُّ أنَّك فالِحٌ، أو لا أَظُنُّ أنَّ اللهَ يُغنيكَ ما دام هذا تَصَرُّفكَ، فيَحصُلُ المَكرُوه.

ويقولُ آخَرُ لمَريضِهِ: لا أَظُنُّ أنَّ اللهَ يَشفيكَ، لَمَنْ بَلَغَتْ حالتُهُ الصِّحَّيَّةُ كذا وكذا، ويقولُ عن فُلانٍ الغائِبِ: لا أَظُنُّ أنَّ فُلانًا يَعودُ، أو يُفَكُّ أَسْرُهُ، فيَحصُلُ المَكروهُ؛ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾[فصلت: ٢٣].

وقد جَاء في «صَحيحِ البُخاريِّ»، مِن حَديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ -وَكَانَ مِن عادةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: «**لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**»- فَقَالَ لَهُ: «**لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**» قَالَ:

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١٦٤٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٤٤).

قُلْتَ: طَهُورٌ؟! كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُور، عَلَى شَيْخٍ كَبِير، تُزِيرُهُ القُبُور، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَنَعَمْ إِذًا»(١)؛ أي: أنا دَعَوتُ لكَ، لكنَّكَ اخترْتَ شيئًا آخَرَ إذًا فنعَمْ؛ فما أتاهُ الصَّباحُ إلَّا وقد ماتَ.

أمَّا حُسنُ الظَّنِّ باللهِ: فهو أنْ تَحذَرَ أنْ تعتَقِدَ أمرًا سَيئًا، فيُحزِنُكَ ويَأْتيكَ المَكروهُ، أو تَقولُ أمرًا سَيِّئًا يُهمُّكَ ويَأْتيكَ المَكروهُ، وقد نَظَمَ مَن نَظَمَ قائِلًا:

وَاحْذَرْ لِسَانَكَ أَنْ تَقُولَ فَتُبْتَلَى ... إِنَّ الـبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِقِ(٢)

وحينَما وَجَدَتِ امرأةُ فِرْعونَ موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَفعَتْهُ، وقالت كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص:٩] فقال فِرْعونُ: أمَّا لكِ فنعَمْ، وأمَّا لي فلا.

فتَحقَّقَ ما قال، فكان لها سَببًا للهدايةِ، وبَنى اللهُ لها بَيتًا في الجَنَّةِ، أمَّا هو فظَلَّ على ضَلالِهِ وكُفرِهِ، ويُعرَضُ عليه مَكانُهُ في جَهَنَّمَ وهُو في قَبرِهِ صَباحَ مَساءَ.

فَأَحْسِنُوا الظَّنَّ باللهِ في جَميعِ شَأْنِكُمْ، ولا يَحسُنُ الظَّنُّ باللهِ إلَّا بإحْسانِ العَمَلِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٦).
(٢) ذكره الجاحظ في المحاسن والأضداد (١/ ٤٢)، وأبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال (١/ ٢٠٧) بلا نسبة.

(١٣)

اللَّعنُ

عِبَادَ الله!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نهى الشَّارعُ الحَكيمُ عنها: اللَّعنُ، وكثرةُ اللَّعنِ.

وهو خُلُقٌ ذَميمٌ، وصفةٌ مِن الصِّفاتِ القَبيحةِ، وخَصلةٌ مِن الخِصالِ الدَّنيئةِ، وهو إحْدى صورِ السَّبِّ والشَّتمِ.

ومعناهُ: الدُّعاءُ على الآخَرِ بالإبعادِ والطَّردِ مِن رَحمةِ اللهِ، وتَوفيقِهِ، وهِدايَتِهِ، فاللَّاعنُ إنَّما يَدْعو على غيرِهِ بالطَّردِ والإبْعادِ عن رَحمةِ اللهِ، وهِدايتِهِ، وتَوفيقِهِ.

واللَّعنُ مَعصيةٌ للهِ، سواءٌ كان الذي لُعِنَ إنسانًا، أو زَمانًا، أو حالًا، أو أيَّ شيءٍ كان، فمَن لَعَنَ الرِّيحَ، أو الوَقتَ، أو الزَّمانَ، أو أيَّ إنسانٍ، يُسمَّى لاعِنًا، وهو يعدُّ بذلِكَ عاصيًا.

بل إنَّ اللَّعنَ كَبيرةٌ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ، فقَد جاءَ عند الطَّبَرانيِّ في مُعجَمِهِ الأَوسَطِ أنَّ سَلَمةَ بنَ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «كُنَّا إِذَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ يَلْعَنُ أَخَاهُ رَأَيْنَا أَنَّهُ قَدْ أَتَى بَابًا مِنَ الكَبَائِرِ»[1].

وقد جاءَتِ أحاديثُ كثيرةٌ عن النبيِّ ﷺ يُحَذِّر فيها مِن هذه الخَصلةِ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٦٦٧٤).

الذَّميمةِ، ومِنها:

ما جاء عندَ البُخاريِّ في كتابه الأدبِ المُفرَدِ، مِن حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قيلَ له: يا رسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فقَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَلَكِنْ بُعِثْتُ رَحْمَةً**»(١).

وقَد جاءَ جُرموزٌ الهُجَيْميُّ -صَحابيٌّ جليلٌ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي! قَالَ: «**أُوصِيكَ أَلَّا تَكُونَ لَعَّانًا**»(٢)؛ لأنَّها ليست مِن صِفاتِ المُؤمِنِ، فالمُؤمِنُ مُتَمَيِّزٌ، وميزَتُهُ تَظهَرُ في لسانِهِ.

ولذا جاءَ في حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندَ البُخاريِّ في كِتابِهِ الأَدَبِ المُفرَدِ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلا اللَّعَّانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيءِ**»(٣).

والطَّعَّانُ: الَّذي يَطعَنُ في النَّاسِ، في أَنْسابِهِم، وأَعْراضِهِم، وسِيَرِهِم.

واللَّعَّانُ مَعروفٌ، وهُو الفاحِشُ البَذيءُ.

فكلُّ هذه الصُّورِ الأربَعِ نابِعةٌ مِن اللِّسانِ.

وفي حَديثِ سَمُرةَ بنِ جُندُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندَ أبي داودَ؛ قَال رَسولُ اللهِ ﷺ -

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٢١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٢٥٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٣٢)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٧٧). وقال الترمذي: حسن غريب.

وهو يُبَيِّنُ خُطورةَ اللَّعنِ- قال: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ، وَلَا بِغَضَبِ اللهِ، وَلَا بِالنَّارِ»[(١)]، أي: لا يَسُبُّ بَعضُكم بَعضًا باللَّعنةِ، فيقولُ: لَعَنَكَ اللهُ، أو غَضِبَ اللهُ عليك، أو جَعَلَكَ النَّارَ، فلا يُلعَنُ أيُّ شيءٍ.

وذاتَ يومٍ كانَ النَّبيُّ ﷺ جالسًا مع أَصحَابِهِ الكِرامِ، فصاحَ ديكٌ، فلَعَنَهُ أَحَدُهُمْ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لَا تَلْعَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلَاةِ»[(٢)].

وسارَ النَّبيُّ ﷺ ذاتَ يومٍ في قافِلةٍ، ومعهُ جاريةٌ على ناقَتِها في أطرافِ القافِلةِ، فضَجِرَتْ ناقةُ الجاريةِ، فما كان مِنها إلَّا أنْ لَعَنَتْها، فسَمِعَ النَّبيُّ ﷺ لَعْنَها للنَّاقةِ فغَضِبَ ﷺ، وقال: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ، لَا تَصْحَبْنَا نَاقَةٌ مَلْعُونَةٌ»[(٣)].

فالمُؤمِنُ لا يُجري اللَّعنَ على لِسانِهِ، فلا يَلعَنُ أَولادَهُ، ولا يَلعَنُ الزَّمَنَ الَّذي عَرَّفَهُ بفُلانٍ مثلًا، ولا يَلعَنُ الحالَ، ولا يَلعَنُ شَيئًا؛ لأنَّ اللَّعنَ تَترَتَّبُ عليه أُمورٌ وآثارٌ سَيِّئةٌ، أذكر منها أَربَعةً:

الأَثَرُ الأَوَّلُ: مَن لَعَنَ شَيئًا ربَّما عادَ اللَّعنُ عليه.

فقَد جَاء عَن رَسولِ اللهِ ﷺ -وهو يُوصِّفُ لنا حَرَكةَ هذه الكَلِمةِ إذا

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في اللعن، رقم (٤٩٠٦)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٧٦). وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١١٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما جاء في الديك والبهائم، رقم (٥١٠١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٢٥٩٥)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

خَرَجَتْ مِن الفَمِ وصفًا دَقيقًا، وكأنَّ اللَّعنَ شيءٌ مُجَسَّمٌ- قال ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا»[(١)].

فَليَحذَرِ الإنْسانُ؛ لأنَّ اللَّعنَ قَد جَرَى على أَلسُنِ النَّاسِ، فالغاضِبُ يَلعَنُ، والمُعجَبُ يَلعَنُ ما أُعجِبَ به، والمُندَهِشُ يَلعَنُ، وليسَ هذا مِن صِفاتِ المُؤْمِنِين.

وقد لَعَنَ رَجُلٌ الرِّيحَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَسْمَعُ، فَقَالَ: «لَا تَلْعَنِ الرِّيحَ؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، وَإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ»[(٢)].

الأَثَرُ الثَّاني: إثمُ اللَّاعِنِ كإثْمِ القاتِلِ.

وقَد أَخبَرَنا بذلك الَّذي لا يَنطِقُ عن الهَوى، فَفِي «صَحيحِ البُخاريِّ» مِن حَديثِ ثابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ رسُولُ الله ﷺ: «وَلَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»[(٣)]؛ أي: مَن لَعَنَ إنسانًا فهُو عِنْدَ اللهِ كأَنَّما وَقَعَ في خَطيئةٍ إثْمُها كإثْمِ مَن قَتَلَ مُؤْمِنًا.

الأَثَرُ الثَّالِثُ: أنَّ مَن أكثرَ اللَّعنَ نُزِعَت منهُ مَزايا التَّمَيُّزِ التي يَتَمَيَّزُ بها يومَ القيامةِ، كأَنْ يكونَ شَهيدًا، أو شافِعًا، أو صِدِّيقًا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في اللعن، رقم (٤٩٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في اللعن، رقم (٤٩٠٨)، والترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٧٨). وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم (٦٠٤٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٠).

فمَن أكثرَ اللَّعنَ نُزِعَتْ منه هذه المَزايا! قالَ رَسولُ الله ﷺ: «لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١] أي: المُكْثِرونَ مِنَ اللَّعنِ؛ وقد قالَ ﷺ في حَديثٍ آخَرَ: «لَا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا»[٢].

فاحْذَرْ أنْ تُجريَ هذه الكَلِمةَ على لِسانِكَ، وحذِّرْ مَن في بَيتِكَ ألَّا تَتَرَدَّدَ هذه الكَلِمةُ في مُحيطِ بَيتِكَ وأُسرَتِكَ؛ فإنَّ مَعْناها الطَّردُ والإبْعادُ مِن رَحمةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الأَثَرُ الرَّابِعُ: أنَّ اللَّاعِنَ قد تُصيبُهُ لَعنةُ اللهِ.

وفَرقٌ بين ما تَقَدَّمَ منَ الآثارِ وبين هذا الأَثَرِ الرَّابِعِ: أنَّ اللَّاعِنَ المُكثِرَ مِن اللَّعنِ قد تُصيبُهُ لَعنةُ اللهِ، فمَن لَعَنَ وَالِدَيْهِ لَعَنَهُ اللهُ، ولَعنةُ اللهِ أَبلَغُ وأَعظَمُ مِن لَعنةِ المَخْلوقِ.

لكنْ قد يقولُ قائلٌ: وهل يَلعَنُ الوَلَدُ وَالِدَيْهِ؟!

والجَوابُ أنَّه: قد يَصِلُ العُقوقُ عندَ الأبناءِ أنْ يَلْعَنوا آباءَهُم وأُمَّهاتِهِم؛ فقد جاءَ في «صَحيحِ مُسلِمٍ»، مِن حَديثِ عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ»[٣].

وهناك صُورةٌ أُخرى؛ فإنَّ مَن يَلْعَنَ آباءَ الآخَرينَ فيَلْعَنُوا أباهُ، فكَأَنَّما لَعَنَ وَالِدَيْهِ، فلا تَلعَنْ، ولا تَسُبَّ أبا أحدٍ، فتَتَسَبَّبَ في أنْ يُسَبَّ والدُكَ ووالِدَتُكَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب، رقم (٢٥٩٨) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب، رقم (٢٥٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨).

وقَد جاءَ في «صَحيحِ البُخاريِّ»، مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[1]. فاسْتَغرَب الصَّحابةُ رضِيَ اللهُ تعالَى عَنهُم! هل مِن المُمكنِ أنْ يَصِلَ الإنسانُ إلى هذا الحَدِّ؟!

فلا تُعطِ المُبَرِّرَ للآخَرينَ أنْ يَدْعُوا على والِدَيْكَ باللَّعنِ والسَّبِّ والشَّتْمِ، فإنَّك حينَما تُهاجِمُهُم شاتِمًا وسابًّا ولاعِنًا، فإنَّك تُعطيهُمُ المُبَرِّرَ أنْ يَسُبُّوا أباكَ وأُمَّكَ، فتكونُ كاللَّاعِنِ لوالِدَيْهِ، فتُصيبُكَ لَعْنةُ اللهِ!

فمعصيةُ اللعْنِ إحدَى المَناهي الشَّرعيَّةِ التي جاءَ بمَنْعِها الشَّارِعُ الحَكيمُ؛ ليُوَجِّهَ سُلوكَ هذه الأُمَّةِ، ويَرتَفِعَ بها نَحْوَ مَعالي الأُمورِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم (٥٩٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٩٠).

(١٤)

اتِّخاذُ الوَسائِطِ والشُّفَعاءِ عِندَ الدُّعاء

• • k • •

مَعاشِرَ الكِرامِ!

إنَّ مِن المَناهي الشَّرعيَّةِ، التي نهى الشَّارعُ الحكيمُ عنها: اتِّخاذُ الوَسائِطِ والشُّفَعاءِ بين العبدِ وخالقِهِ عندَ الدُّعاءِ.

نَعْلم أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حينما خَلَقَ الخَلقَ خَلَقَهُم لغايةٍ واحدةٍ، وهي: إفرادُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادةِ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وإذا تَأَمَّلتَ حالَ النَّاسِ اليومَ، وحالَ عَددٍ كبيرٍ ممَّن يَنتَسِبُ إلى الإسلامِ وجَدتَهُ قد أخَلَّ بهذا الأمرِ أيَّما إخلالٍ، فوجَدتَ مَن صَرَفَ أَعظَمَ وأَجَلَّ عبادةٍ – وهي عبادةُ الدُّعاءِ– لغيرِ اللهِ، فتَجِدُ ممَّن يَنتَسِبُ إلى الإسلامِ وقد أقامَ عندَ القُبورِ والأَضرِحةِ يَدْعُوها مِن دونِ اللهِ! فيَطلُبُ مِنها المَدَدَ! ويَسأَلُها الوَلَدَ! ويَطلُبُ مِنها الأرزاقَ! ويَسأَلُها جَلبَ المَنافِعِ، ودَفعَ المَضارِّ!

فإذا أَنكَرتَ عليهم، وقُلتَ لهم: لِمَ لا تَتَوَجَّهونَ إلى اللهِ بالدُّعاءِ؟! قالوا: نَعلَمُ أنَّ اللهَ هو الرَّازقُ، وأنَّه المُعطي، والمُحيي، والمُميتُ، لكنَّنا نَتَّخِذُ هؤلاءِ شُفعاءَ ووُسطاءَ، نَتَقَرَّبُ بدُعائِنا لهم إلى اللهِ.

وهذه فِريةٌ عَظيمةٌ وشُبهةٌ أَوْقَعَهُمُ الشَّيطانُ فيها، وقَد بيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

شُبهَتَهُم، وردَّ عليهم، وبيَّنَ أنَّ فِعلَهُم هو فِعلُ الكَذَّابينَ الكَفَرةِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر:٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]. فهؤلاءِ هُمُ الَّذينَ تَوَجَّهوا بالدُّعاءِ للأَضرِحةِ والقُبورِ أيًّا كان مَن فيها؛ من الأنبياءِ، أو الأولياءِ، أو الصَّالحينَ، أو تَجاوَزوا في الانحِرافِ، فتَعَلَّقَتْ قُلوبُهم ودُعاؤُهم بالأَشجارِ والأَحجارِ.

وهذا الذي تَعَلَّقَ قَلبُهُ بغيرِ اللهِ، فدَعاهُ مِن دونِ اللهِ، يقولُ عَنه ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمَن جَعَلَ المَلائِكةَ والأنبياءَ وَسائِطَ يَدْعُوهم، ويَتَوَكَّلُ عليهم، ويَسأَلُهُم جَلْبَ المَنافِعِ ودَفْعَ المَضارِّ، مثلُ أنْ يَسأَلَهُم غُفرانَ الذُّنوبِ، وهِدايةَ القُلوبِ، وتَفريجَ الكُرُباتِ، وسَدَّ الحاجاتِ، فهو كافِرٌ بإجماعِ المُسلمينَ(١).

فإذا قَرَأتَ في كِتابِ اللهِ وَجَدتَ التَّوجيهَ واضِحًا: أنَّك لا تَدْعو إلَّا اللهَ، فقَد قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، فلم يَجْعَلْ بينَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبينَ خَلقِهِ وَسائطَ وشُفعاءَ، فلم يقل: ادْعُوني عن طريقِ فُلانٍ، بل قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠].

وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٢٤).

ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾[البقرة:١٨٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥].

وقد جَاء في سُنَنِ التِّرمِذيِّ، مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[(١)]، فكيف بمَن سَأَلَ غيرَ اللهِ؟! وكيف يكونُ حالُهُ عندَ اللهِ؟!

ويَأمُرُنا رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أمرًا صَريحًا واضِحًا بَيِّنًا: ألَّا نَصرِفَ هذه العبادةَ لغيرِهِ، فيقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[يونس:١٠٦].

ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُبَيِّنًا ضَلالَ مَن دَعا غيرَ اللهِ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾[الأحقاف:٥ - ٦].

وجاءَ في «صَحيحِ البُخاريِّ» عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ فقَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[(٢)]، فتَقِفُ عندَ قبرٍ لا يَملِكُ لنفسِهِ نَفعًا ولا ضَرًّا، فتَحلِفُ به، وتَستعينُ به، وتَستغيثُ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم (٣٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

به، وتَنذِرُ له، وتَدعُوهُ، فماذا أَبْقَيْتَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؟!

وقال عبدُ اللهِ بنُ العبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ! احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»(١).

وهَذا درسٌ تَعَلَّمْناهُ ونحنُ صِغارٌ، لكنْ بَقِيَتِ المَعرفةُ والعِلمُ، وتَخَلَّفَ العَمَلُ عندَ الكثيرِ.

وقد جاءَ في «صَحيحِ البُخاريِّ» مِن حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(٢).

فهَذا هو رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ القَريبُ مِن خَلقِهِ، الذي لا يَنْبَغي أنْ تُصرَفَ أيُّ عبادةٍ لغيرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي يومِ القيامةِ تَتَأَكَّدُ هذه الحقائقُ التي تَحَدَّثْنَا عنها، ويَظهَرُ عَجزُ هؤلاءِ الوُسطاءِ والشُّفعاءِ الَّذينَ كانوا يُدْعَوْنَ مِن دونِ اللهِ في الدُّنيا.

وهناك عُقولٌ في الدُّنيا تَنَبَّهَتْ لهذا، وذلِك حينما تَأَمَّلَتْ وتَفَكَّرَتْ، فصَحَتْ مِن غَفْلَتِها، كما صَحا ذاكَ الجاهِليُّ في عَهدِ النَّبيِّ ﷺ الذي كان يَعبُدُ صَنمًا له،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

ويَدْعوهُ مِن دونِ اللهِ؛ فهو يَعتَقِدُ بوُجودِ الخالِقِ، ويَعتَقِدُ بوُجودِ الرَّازِقِ، ويَعلَمُ أنَّ اللهَ هو المُحيي والمُميتُ، لكنَّهُ اتَّخَذَ الصَّنَمَ شَفيعًا، يَتَقَرَّبُ به إلى اللهِ، وهذا شِركٌ.

وفي يومٍ مِن الأيَّامِ: جاءَ إلى صَنَمِهِ، الذي يَطلُبُ عندَهُ الحَوائِجَ، فوَجَدَ الثَّعلبَ يَبولُ عليه، فتَأَمَّلَ وتَفَكَّرَ، ورَجَعَ إلى عقلِهِ، وبَدَأَ يَتَساءَلُ، ويُنشِدُ أَبياتًا، قال فيها:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثَّعْلُبَانُ عَـلَى رَأْسِـهِ؟! لَقَدْ ذَلَّ مَـنْ بَالَـتْ عَلَيْـهِ الثَّعَالِـبُ[1]

فكيف لا يَصرِفُ عن نفسِهِ السُّوءَ وأنا أُريدُ منه صَرفَ السُّوءِ عنِّي؟! وكيف لا يَحمي نفسَهُ وأنا أَطلُبُ منه حِمايَتي؟!

فهذا هُو الرَّاشِدُ المُوَفَّقُ الذِي تَأملَ في الدُّنيا وتَنَبَّه، أمَّا الذي يَموتُ على حالِهِ هذه، فقَد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ فيه -كما جاءَ في صَحيحِ البُخاريِّ-: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»[2]؛ أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم ووالِدينا مِن النَّارِ.

✖ ⌑ ✖

(١) الطبقات الكبير لابن سعد (١/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٤٩٧)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٥)

النَّهيُ عَنِ الغَفْلَةِ

مَعاشِرَ الكِرامِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ، التي نَهى الشَّارعُ الحكيمُ عنها: النَّهيُ عن الغَفلةِ عن دينِ اللهِ، وأمرِه، وشَرعِه، ومَنهَجِه، وطاعَتِه، وأوامِرِه.

وهي داءٌ يُصيبُ كثيرًا مِن النَّاسِ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[يونس:٩٢]، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[الأنبياء:١ - ٣].

لذا جاءَ الأمرُ مِن اللهِ بالتَّحذيرِ مِن هذا الدَّاءِ العُضالِ بما يُقابِلُهُ مِن الذِّكرِ والانتِباهِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[الأعراف:٢٠٥].

وقال أبو العَتاهِيَة[1]:

النَّاسُ في غَفَلاتِهِمْ ... وَرَحَى المَنِيَّةُ تَطْحَنُ

---

(١) ديوانه (ص:٤٦١).

لذا، فالواجب على العاقِلِ مِن النَّاسِ أنْ يُنقِذَ نفسَهُ بألَّا يكونَ مِن هؤلاءِ الأكثريَّةِ الغافِلةِ؛ لِما في الغَفلةِ مِن الخَطَرِ العَظيمِ.

وأَخطَرُ ما في الغَفلةِ أمرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: هو الخَتمُ على القلبِ، والطَّبعُ عليه؛ والغَفلةُ أمرٌ نسبيٌّ، فعلى قدرِ ما يَكونُ في القَلبِ مِن الغَفلةِ يُختَمُ عليه ويُطبَعُ عليه بحسَبِها.

قَالَ تُرجمانُ القُرآنِ وحَبرُ الأُمَّةِ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ»[(١)]. فـ«جَاثِمٌ» أي: جالِسٌ مُلتَصِقٌ، و«خَنَسَ» أي: ابتَعَدَ وهَرَبَ.

وهكذا حالُنا مع الشَّيطانِ، فَهو يَستغِلُّ هذه الثَّغرةَ، وهي الغَفلةُ، فيُطبَعُ على القَلبِ، ويُختَمُ عليه بسببِ ذلكَ، قَال اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩].

فلمَّا غَفَلوا تَعَطَّلَتْ هذه الجَوارِحُ: خُتِمَ على القلبِ، وعَمِيَ البَصرُ، وصُمَّتِ الأذانُ، والدَّليلُ على ذَلك: مَن يَصِلُهُ صَوتُ الخُطبةِ – ممَّن نَعرفُ مِن الإخْوةِ، والزُّملاءِ، والآباءِ– ولا يُصلِّي الجُمُعةَ؟! وقد قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلِينَ»[(٢)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٩١٩)، وأبو داود في الزهد رقم (٣٣٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب التشديد في ترك الجمعة، رقم (٨٦٥)، من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله تعالى عنهم.

فكم نَعرِفُ مِن النَّاسِ مَن لا يُصلِّي الجُمُعةَ أبدًا، ولا تَخطِرُ له على بالٍ، ويَصِلُهُ صوتُ الأذانِ، وربَّما وصلَهُ صَوتُ الخُطبةِ، ومع ذلك لا يُصلِّي، وتَمُرُّ عليه الجُمُعةُ، ثم الجُمُعةُ، ثم الثَّالثةُ، ثم سَنةٌ، وسنواتٌ، فلا يُصلِّي.

فأيُّ غَفلةٍ استَحكَمَتْ على هذا الإنسانِ؟!

الأمْرُ الثَّاني: الصَّدُّ عن الحَقِّ؛ فهُو الخَطرُ الثَّاني للغَفلةِ.

فإذا استَحكَمَتِ الغَفلةُ مِن الإنسانِ صُدَّ عن الحقِّ، فلا يُبصِرُ الصِّراطَ المُستَقيمَ، فتراهُ يَذهَبُ في كلِّ طَريقٍ، إلَّا الطَّريقَ الذي يُؤَدِّي إلى اللهِ.

وقَد قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

فقال: ﴿عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ أي: الآياتِ الشَّرعيَّةِ، والكَونيَّةِ.

وهَناكَ آيةٌ أُخرى قَريبةٌ مِن هذه الآيةِ، يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[الزمر:٤٥]، وذلك بسببِ الغَفلةِ.

وقد يَتساءَلُ الإنسانُ بعد ذلك: هل أنا مُصابٌ بداءِ الغَفلةِ؟

أقولُ: سأَعرِضُ لك علاماتٍ، أَعرِضُها على نفسي وتَعرِضُها على نفسِكَ، فمَن وَجَدَ هذه العَلاماتِ الثَّلاثَ فهو مِن الغافلينَ بقَدْرِ مَا:

العَلامةُ الأُولى: التَّكاسُلُ عن الطَّاعةِ أو تَركُها.

وقَد قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

العلامةُ الثَّانيةُ: استِصغارُ الذَّنبِ واحتقارُه، فيَرتَكِبُ الذَّنبَ العَظيمَ الذي هو كَبيرةٌ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ ولا يَراهُ شيئًا كبيرًا.

وقد جاءَ في «صَحيحِ البُخاريِّ»: عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: «**إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا**»(١).

فأيُّ تَوصيفٍ أعظمُ مِن ذلك؟!

ولذا قيل:

خَلِّ الذُّنوبَ صَغيرَها ... وَكَبيرَها، ذاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَماشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يَرَى
لا تَحْقِرَنَّ صَغيرةً ... إِنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصَى(٢)

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٦٣٠٨).

(٢) ديوان ابن المعتز (ص: ٢٩).

العلامةُ الثَّالثةُ: إضاعةُ الوَقتِ فيما لا يُرضي اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فإذا وَجَدَ الإنسانُ مِن نفسِهِ أَنَّهُ يُضَيِّعُ أوقاتَهُ، ويُفَوِّتُ ما أمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى به، فلْيَعْلَمْ أَنَّهُ قد أُصيبَ بداءِ الغَفلةِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسألُ هؤلاءِ الَّذينَ ضَيَّعوا أوقاتَهُم ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[المؤمنون:١١٢ - ١١٦].

ولهذا يقولُ القائِلُ:

إِنَّـــا لَنَفْـــرَحُ بِالأَيَّـــامِ نَقْطَعُهَـــا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَـى يُـدْنِي مِـنَ الأَجَـلِ

فاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَـوْتِ مُجْتَهِـدًا ... فَإِنَّمَا الرِّبْحُ وَالخُسْـرَانُ فِي العَمَـلِ[1]

وهاهنا وصيَّتان، أُوصي بها نفسي وإيَّاكمُ؛ للخلاصِ مِن داءِ الغَفلةِ، والحَذَرِ والوقايةِ مِن الوقوعِ فيه:

الوصيَّة الأُولى: لا تَصحَبِ الغافلينَ.

فيا مَن تخافُ على نفسِكَ لا تصحَبِ الغافلينَ، فإنَّ الطَّبعَ سَرَّاقٌ، ومَن خافَ أَدلَجَ وسَلِمَ؛ واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْصانا بذَلِك في سورةِ الكَهفِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ

(١) البيتان في الدر الفريد (٤/ ٤٦٣).

هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[الكهف:٢٨].

فلا تُعطِهِ زِمامَ أَمرِكَ؛ كَي لا تَهلِكَ وتَخسَرَ، كما قال ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[(١)].

وقالَ الشَّاعرُ[(٢)]:

عَنِ الرَّجُلِ لَا تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ ... وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

الوَصيَّةُ الثَّانيَة: اللهَ اللهَ! في قيامِ اللَّيلِ.

ففيه عِلاجٌ للغَفلةِ، وقَد جاءَ في سُنَنِ أبي داودَ مِن حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِئَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطَرِينَ»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد: (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب (٤٥)، رقم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢/ ١٧٩) غير منسوب، ونسبه الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص١٦٦) لعدي بن زيد، والبيت الأول في ديوان طرفة (ص٣٢).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب تحزيب القرآن، رقم (١٣٩٨).

(١٦)

العُجب

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى الشَّارِعُ الحَكيمُ عنها: العُجْبُ.

وهُو الزَّهْوُ الذي يَقودُ إلى الكِبْرِ، إلى حَدِّ تَضْخيمِ الذَّاتِ، كما قال الهَيْتَمِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِهِ «الزَّواجِرِ» وهو يُعرِّفُ العُجْبَ: استِعْظامُ النِّعْمةِ والرُّكونُ إليها، مع نِسْيانِ إضافَتِها إلى اللهِ تعالى[1].

فقد يُعْجَبُ الإنسانُ بالنِّعَمِ التي عندَهُ، فيُعجَبُ بمالِهِ وعَقارِهِ، ويُعجَبُ بحَسَبِهِ ونَسَبِهِ، ويُعْجَبُ بجاهِهِ وسُلْطانِهِ، ويُعْجَبُ بعِلمِهِ وذَكائِهِ وفَصاحَتِهِ، ويُعجَبُ بطاعَتِهِ وتَدَيُّنِهِ، ويَنْسُبُ ذلك إلى نفسِهِ، ولا يَنْسُبُهُ إلى المُنعِمِ سبحانَهُ.

فيَغْتَرُّ ويُعجَبُ بنفسِهِ! حتَّى يَصِلَ إلى الظَّنِّ أنَّهُ هو صاحِبُ الفَضلِ والإنْعامِ!

وهذِه كَبيرةٌ مِن كَبائِرِ الذُّنوبِ، وجاءَ الشَّارِعُ الحَكيمُ بالنَّهْيِ عنها، فقدَ ذَكَرَ ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صورًا في كِتابِهِ الكَريمِ لَمَن أُصيبَ بهذا الدَّاءِ، ولَمَن سَلِمَ مِن هذا الدَّاءِ.

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٢٢).

فهذا فِرْعَوْنُ قد أُصيبَ بداءِ العُجْبِ، إلى حَدِّ تَضْخيمِ الذَّاتِ، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٣٨ - ٤٠]. هذه صورةٌ ومِثالٌ لَمن أُعجِبَ بنفسِهِ، حتَّى وَصَلَ إلى هذا الحَدِّ مِن العُتُوِّ والزُّهُوِّ.

وفي المُقابِلِ: يَذْكُرُ لنا رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى صورةً ممَّن سَلِمَ مِن داءِ العُجْبِ، ونَسَبَ الفَضْلَ والنِّعمةَ للهِ ذي الفَضْلِ والإنْعامِ، فهذا سُلَيْمانُ -عليه السَّلامُ- وهُو نَبيٌّ وقد أتاهُ اللهُ مع النُّبُوَّةِ المُلْكَ، وسَخَّرَ له الخَلْقَ، ومنهم الجِنُّ، يَعْمَلونَ له ما يَشاءُ؛ لَمَّا أرادَ إحضارَ عَرْشِ بَلْقيسَ، وهُو -عليه السَّلامُ- في الشَّامِ والعَرْشُ في اليَمَنِ، فأُحْضِرَ له في أَقَلَّ مِن طَرْفةِ عَينٍ!

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبيِّنًا مَقالةَ سُلَيْمانَ -عليه السَّلامُ وهو يَعترِفُ أنَّهُ ليس له حَوْلٌ ولا قُوَّةٌ، وإنَّما كانَ ذلكَ امتِحانٌ واخْتِبارٌ، فقالَ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[النمل:٤٠].

ويُروى عن عيسى -عليه السَّلامُ- أنَّهُ خَاطِبَ الحَواريِّينَ فقالَ: يا مَعْشَرَ الحَواريِّينَ! كم مِن سِراجٍ قد أَطْفَأَتْهُ الرِّيحُ! وكم مِن عابِدٍ قد أَفْسَدَهُ العُجْبُ![1].

---

(١) ذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار (٢/ ٢٩٢).

إنَّ العُجْبَ: يُفسِدُ، ويُدَمِّرُ، ويُهلِكُ، وانْظُرْ إلى حالِ المُسلِمينَ في غَزْوةِ حُنَيْنٍ، وإمامُهُم وقِدْوَتُهم وقائِدُهُم رسولُ اللهِ ﷺ؛ لَمَّا أُعْجِبوا بكَثرةِ العَدَدِ والعَتادِ لَمَّا رَأَوْا هذه الكَثْرةَ دَخَلَ في نُفوسِهِمْ شيءٌ مِن العُجْبِ، فهُزِموا في أوَّلِ الأمْرِ؛ وقَد كانوا يُنْصَرونَ مع قِلَّةِ العَدَدِ والعَتادِ.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة:٢٥].

وقد جاءَ الأمْرُ مِن اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنَّهيِ عن العُجْبِ فقال محذِّرًا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[الإسراء:٣٧ - ٣٨].

وهذا قارونُ الذي خَرَجَ على قَوْمِهِ في زينَتِهِ، وهو يقولُ: هذا الخَيْرُ، وهذه النِّعَمُ، وهذه الأمْوَالُ، وهذه الخَزائِنُ، وهذه الكُنوزُ، كُلُّها مِن عندي، فإنَّني تَعِبتُ في تَحْصيلِها، فهذا مِن عَرَقي ومِن جَبيني ومِن قُوَّتي ومِن ذَكائي ومِن حُسْنِ تَدْبيري؛ فقال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[القصص:٧٨] ثُم أتاهُ أَمْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وأمَّا الأحاديثُ النَّبويةُ فقد جاءَ فيها الكَثيرُ في بيانِ خُطورةِ العُجْبِ:

ففي صَحيحِ البُخاريِّ مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ** -ثَوبٍ مِن رِداءٍ وإزارٍ- **تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ**

خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[١]. وهذا صَريحٌ في كِتابِ اللهِ أيضًا كَما تقدَّم في قصَّة قارونَ.

وقَد مَرَّ المُهَلَّبُ بنُ أبي صُفْرةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهُو أحدُ قاداتِ المُسلِمينَ في العَهدِ الأُمَويِّ- ودَخَلَ في نفسِهِ في لَحْظةٍ مِن الزَّمَنِ شَيْءٌ مِن العُجْبِ والغُرورِ، فقام يَمْشي مُتَبَخْتِرًا، ويَتَخايَلُ في مِشْيَتِهِ، فمَرَّ بأَحَدِ عُلَماءِ المُسلِمينَ وهُو مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال له مُطَرِّفٌ: يا عبدَ اللهِ! هذه مِشْيةٌ يُبْغِضُها اللهُ ورَسُولُهُ، فقال له المُهَلَّبُ في لَحْظَةٍ مِن الغَفْلةِ: أما تَعْرِفُني؟! قال: بل أَعْرِفُكَ؛ أَوَّلُكَ نُطْفةٌ مَذِرةٌ، وآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرةٌ، وأنت فيما بَيْنَ ذلك تَحمِلُ العَذِرةَ[٢].

ثُمَّ قِيلتْ بعدَ ذَلكَ شِعْرًا:

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ ... وَكَانَ بِالأَمْسِ نُطْفَةً مَذِرَةْ

وَفِي غَدٍ بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِهِ ... يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَةْ

وَهُوَ عَلَى تِيهِهِ وَنَخْوَتِهِ ... مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يَحْمِلُ العَذِرَةْ[٣]

فالعاقلُ: هو مَن تَواضَعَ، وسَيَرْفَعُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والبَعيدُ: هو ذلك الذي أُعجِبَ بنفسِهِ، وظنَّ أنَّ الحَوْلَ والقُوَّةَ بيدِهِ.

وقَد لاحَظَ الصَّحابةُ المُقَرَّبونَ مِن النَّبيِّ ﷺ بعد غَزْوةِ حُنَيْنٍ، وهو في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٨٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، رقم (٢٠٨٨).

(٢) ذكره أبو الليث السمرقندي في تنبيه الغافلين (ص:١٨٥).

(٣) الأبيات لأبي محمد الخوارزمي، انظر: يتيمة الدهر (٣/ ١٤٣).

الطَّرِيقِ، إذا صَلَّى صَلاتَهُ وانْصَرَفَ إليهم، يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، يُقولُ شَيْئًا ما اعْتَادوا على سَماعِهِ، ولكنَّهُ غيرُ واضِحٍ بالنسبةِ لهم، فسَأَلُوا النَّبيَّ ﷺ نَراكَ تَفعَلُ شَيْئًا، ما فَعَلْتَهُ مِن قَبْلُ! فقال ﷺ: «ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَعْطَاهُ اللهُ كَثْرَةً فِي أُمَّتِهِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَنْ يَقُومُ لِهَؤُلَاءِ؟! فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّكَ أَخْطَأْتَ، وَعُقُوبَةٌ نَازِلَةٌ، فَاخْتَرْ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُسَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ، أَوْ يُسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الجُوعُ، أَوْ يُسَلَّطَ عَلَيْهِمُ المَوْتُ، فَاسْتَشَارَ هَذَا النَّبِيُّ قَوْمَهُ، قَالُوا: أَمَّا أَنْ يُسَلَّطَ عَلَيْنَا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِنَا فَلَا نَسْتَطِيعُ، وَأَمَّا الجُوعُ فَلَا نَصْبِرُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّا نَخْتَارُ المَوْتَ، فَسُلِّطَ عَلَيْهِمُ المَوْتُ، فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أُخِذَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا» فلأنَّه قال -عليه السَّلامُ-: مَنْ يَقومُ لِهَؤُلَاءِ؟ فَقَطْ، فأُخِذَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعُونَ أَلْفًا!.

ثم قال نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَهَا تَرَوْنِي أَقُولُهُ وَلَمْ تَفْقَهُوهُ، فَإِنِّي أَقُولُ: اللَّهُمَّ بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِي إِلَّا بِكَ»[1].

إنَّ للمُعجَبِ دَواءً إنْ رأى نَصْرًا في نفسِهِ، ونَجاحًا في وَلَدِهِ، ونِعْمَةً نازِلَةً إليه، وهذا الدواءُ هُو أنْ يُرَدِّدَ: لا حَوْلَ لنا ولا قُوَّةَ إلَّا بكَ؛ وذلكَ لِيَعْتَرِفَ بالفَضْلِ والإنْعامِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلَّا فإنَّها مَسْلوبةٌ، وهو واقِعٌ عليه الفَناءُ والبَلاءُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البروج، رقم (٣٣٤٠) من حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لأحمد.

(١٧)

البُهتان

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنها: البُهْتانُ.

البُهْتانُ: هو أَفحَشُ الكَذِبِ.

البُهْتانُ: هو الكَذِبِ الذي يَبْهَتُ سامِعَهُ، ويُحَيِّرُهُ ويُدْهِشُهُ.

البُهْتانُ: هو رَمْيُكَ الغيرَ بذَنْبٍ هو منه بَريءٌ.

البُهْتانُ: أنْ تقولَ في إنْسانٍ ما لم يَكتَسِبْ، وما لم يَعْمَلْ، مثلُ: مَن يَبهَتُ زَوجَتَهُ أو طَليقَتَهُ في عَفافِها وعِفَّتِها، أو في شَيءٍ مِن أَخْلاقِها.

البُهْتانُ: هو أنْ تَبهَتَ صاحِبَكَ أو شَريكَكَ في أَمانَتِهِ وديانَتِهِ.

البُهْتانُ: هو أنْ تَرْميَ خَصمَكَ ومُنافِسَكَ بأَبْشَعِ التُّهَمِ، وتُشَكِّكَ في وَلائِهِ، وانتِمائِهِ، وتَدَيُّنِهِ، ودينِهِ.

البُهْتانُ: أَمْرُهُ عَظيمٌ. **البُهْتانُ**: حِمْلٌ ثَقيلٌ.

وسيَأْتي هذا الذي بَهَتَ غيرَهُ يومَ القيامةِ يَحمِلُ البُهْتانَ على ظَهْرِهِ، قال اللهُ تَعالَى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١١٢].

وفي سُورةِ الأحْزابِ قولُ المَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨].

وفي سُورةِ النُّورِ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[النور:١٦].

وقَد عَرَّفَ رسولُ اللهِ ﷺ البُهْتانَ، وذلك حينما سَأَلَ الصَّحابةَ في يومٍ، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[(١)].

فالبُهْتانُ: مِن أَعظَمِ الذُّنوبِ، ومِن أكبرِ الكَبائِرِ؛ وقَد قِيل: ليس شَيْءٌ مِن الذُّنوبِ أَعْظمَ مِن البُهْتانِ.

ففي مُسنَدِ أحمدَ مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال نَبِيُّنا ﷺ: «وَخَمْسٌ لَيْسَ لَهُنَّ كَفَّارَةٌ: الشِّرْكُ بِالله، وَقَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْ بَهْتُ مُؤْمِنٍ، أَوِ الفِرَارُ يَوْمَ الزَّحْفِ، أَوْ يَمِينٌ صَابِرَةٌ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالًا بِغَيْرِ حَقٍّ»[(٢)].

ويقولُ الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: في آخِرِ الزَّمانِ بَهَّاتُونَ عَيَّابُونَ، فاحْذَرُوهُم؛ فإنَّهُم أَشْرارُ الخَلْقِ[(٣)].

فليس في قُلوبِهِمْ نورُ الإسلامِ، فهم أَشْرارٌ، لا يَرْتَفِعُ لهم إلى اللهِ عَمَلٌ، هَؤُلاءِ الَّذينَ رَمَوْا غَيْرَهُمْ بالبُهْتانِ، بالكَذِبِ والزُّورِ، لا يَرتَفِعُ لهم عَمَلٌ؛ لأنَّ البُهْتانَ: شَأْنُهُ عَظيمٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢).

(٣) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في التوبيخ والتنبيه (٢١٣).

ويَدخُلُ البُهْتانُ في دائِرةِ الغِيبةِ التي بَيَّنَ رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِثالَها في أَبشَعِ صُورةٍ، وهي مثلُ الذي يَأْكُلُ لَحْمَ أخيه مَيْتًا، فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وفي حَديثٍ رَواهُ سَهلُ بنُ مُعاذِ بنِ أَنَسٍ، يُحَدِّثُ عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما جاءَ في سُنَنِ أبي داودَ، يقولُ ﷺ: «وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ، وَلَيْسَ بِخَارِجٍ»(١).

فمَن رَمَى مُسلِمًا بكَلِمةٍ يُريدُ أنْ يَشينَهُ في المُجتَمَعِ، أو عندَ فُلانٍ وفُلانٍ، بكَلِمةِ كَذِبٍ وزُورٍ وبُهْتانٍ، سواءٌ صَرَّحَ بها أو عَرَّضَ بها ولَمَّحَ

وفي حَديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللهُ رَدْغَةَ الخَبَالِ، حَتَّى يَأْتِيَ بِالمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَيْسَ بِخَارِجٍ»(٢).

و«رَدْغَةَ الخَبَالِ»: مُستَنْقَعُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ.

وفي مُسنَدِ أحمدَ، مِن حديثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ نَبيُّنا ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي، مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤١)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، رقم (٤٨٨٣)، من حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٧٠)، أبو داود: كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة، رقم (٣٥٩٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ رقم١٣٤٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٧٨).

فالحَذَرَ الحَذَرَ! مِن الوُقوعِ في أَعْراضِ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ، فالأَمْرُ جِدٌّ عَظيمٌ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

وقَد قال أَحَدُ الحُكَماءِ: إنْ ضَعُفْتَ عن ثَلَاثةٍ فعليكَ بثَلاثةٍ:

- إنْ ضَعُفْتَ عن الخَيْرِ فأَمْسِكْ عن الشَّرِّ.
- وإنْ كُنتَ لا تَستَطيعُ أنْ تَنْفَعَ النَّاسَ فأَمْسِكْ عنهم ضُرَّكَ.
- وإنْ كُنتَ لا تَستَطيعُ أنْ تَصومَ فلا تَأْكُلْ لُحُومَ النَّاسِ[(١)].

والحَذَرَ كلَّ الحَذَرِ! مِن أنْ يقولَ الإنْسانُ: أنا ما أَتَيْتُ بشيءٍ مِن عندي، بلْ سَمِعتُ النَّاسَ يَتَحَدَّثونَ فقُلتُ مثلَ ما يقولونَ! كما يُصَدِّرُ بعضُ المُغَرِّدينَ مَقالَهُ: «حَسَبَ ما وَصَلَني»، فهذه لا تُنْجيكَ، وإذا سَمِعتَ كَلِمةً فلا تُرَدِّدْها، وإذا سَمِعتَ بُهْتانًا يُقالُ في أَحَدٍ فلا تَتَبَنَّاهُ.

وذَلكَ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[(٢)]، فلا تُحَدِّثْ بكُلِّ ما تَسمَعُ، وتَذَكَّرْ قولَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[النور:١٦].

فلا تُرَدِّدْ كلَّ يُقالُ، وليس هذا شَأْنَ المُسلِمِ، فالمُسلِمُ يقولُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[النور:١٦].

* ¤ *

(١) ذكره أبو الليث السمرقندي في تنبيه الغافلين (ص:١٦٦).

(٢) أخرجه مسلم: في مقدمة الصحيح، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم (٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(١٨)

تَرْك الصلاة

عبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نهى الشَّارعُ الحكيمُ عنها: تَركُ الصَّلاةِ.

كَما هُو معلومٌ أنَّ الصَّلواتِ الخمسَ فَرْضُ عَينٍ على كُلِّ مُسلِمٍ مُكَلَّفٍ.

وقد ذكرها الله في كتابه الكريم في مواضع كثيرة جدًّا:

فقال رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٧٢].

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، قال الشَّيخُ السَّعْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: مَفْروضًا في وَقتِهِ[١].

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، قال الشَّيخُ السَّعْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: الدِّينُ المُستقيمُ[٢].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٩٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٩٣١).

وقد جاءَ في صَحيحِ البُخاريِّ، مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَرْسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ مُعاذًا إلى اليَمَنِ، وأَوْصاهُ بوَصِيَّةٍ قال فيها: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[(١)].

وجاءَ في سُنَنِ أبي داودَ من حَديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ، كَتَبَهَنَّ اللهُ عَلَى العِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ، فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ: إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ»[(٢)].

إنَّ الصَّلواتِ الخَمسَ قدِ افْتَرَضَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأَمَر بأَدائِها في أيِّ حالٍ كان العَبدُ عليهِ، سواءٌ كان في حالِ الحَضَرِ أو السَّفَرِ، أو في حالِ السِّلْمِ أو الحَرْبِ، أو في حالِ الصِّحَّةِ أو المَرَضِ، أو في حالِ الأَمْنِ أو الخَوفِ.

يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٩].

وبيَّنَ ﷺ أنَّ الصَّلاحَ -كلَّ الصَّلاحِ- والفَلاحَ -كلَّ الفَلاحَ- والنَّجاحَ -

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في المحافظة على وقت الصلوات، رقم (٤٢٥).

كلَّ النَّجاحِ- في المُحافَظةِ على هاتيكَ الصَّلواتِ الخَمسِ.

فهي أَوَّلُ ما يُحاسَبُ به العَبدُ يومَ القيامةِ، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاَتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»[(١)].

والخَيْبةُ والخُسرانُ تكونُ في الدُّنيا؛ فتكونُ في نفسِهِ، وتكونُ في رِزْقِهِ، وتكونُ في طُمَأْنينتِهِ وسَكينتِهِ وبالِهِ، وتكونُ الخَيْبةُ والخُسْرانُ في وَلَدِهِ، وفيما يَسْتَقْبِلُ مِن حَياتِهِ، وتكونُ في آخِرَتِهِ، أَمَا قال ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم:٥٩]، يقولُ الشَّيخُ السَّعْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿غَيّٗا﴾ أي: عَذابًا مُضاعَفًا شَديدًا[(٢)].

ولك أنْ تَتَصَوَّرَ هذا المَشهَدَ الذي ذَكَرَهُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كِتابِهِ الكريمِ في آياتٍ تُتْلى إلى يومِ القيامةِ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[المدثر: ٣٩- ٤١]، ثُم يُوَجِّهونَ السُّؤَالَ للمُجْرمينَ وهم في سَقَرَ ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾[المدثر: ٤٢ - ٤٣].

وهذه الخَيْبةُ التي ليس بعدَها خَيْبةٌ، وهذا الخُسرانُ المُبينُ، الذي ليس بعدَهُ خُسْرانٌ، حينما يكونُ في العَبدُ مآلُ حياتِهِ وآخِرَتِهِ في سَقَرَ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾[المدثر:٢٨].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، رقم (٤١٣)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، رقم (٤٦٥).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٤٩٦).

وهاهُنا ثلاثةُ أحاديثَ أُذَكِّرُ بها نفسي وأُذَكِّرُكم بها، وأُذَكِّرُ بها كذلِكَ مَن فَرَّطَ بالصَّلاةِ، واكْتَفى بصَلاةِ الجُمُعةِ، أو اكْتَفى بصَلاةِ المُناسباتِ، وأُذَكِّرُ بها كلَّ مَن فَرَّطَ وتَهاوَنَ وتَكاسَلَ عن أداءِ الصَّلاةِ.

وذَكِّرْ بها مَن وَراءَكَ مِن أَبنائِكَ وبَناتِكَ، مِن أَهلِ بَيْتِكَ، وزُملائِكَ، ممَّن تَرى قد تَرَكَ الصَّلاةَ، أو يُصَلِّي على مِزاجِهِ، وبحَسَبِ ما يُسمَحُ له مِن وَقتٍ.

وهذهِ الأحاديثُ الثَّلاثةُ:

الحديثُ الأوَّلُ: جاءَ في صَحيحِ مُسلِمٍ، حديثُ جابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**»[١]، فإذا تَرَكَ الصَّلاةَ خَرَجَ مِن دائِرةِ الإيمانِ إلى دائِرةِ الكُفرِ، عياذًا باللهِ!.

الحَديثُ الثَّاني: حَديثُ عبدِ اللهِ بنِ بُرَيْدَةَ يُحَدِّثُ عن والِدِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال ﷺ: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[٢].

فكيف يَهْنَأُ لكَ نومٌ أو طَعامٌ وأنت تَرى أحدَ أبنائِكَ لا يُصَلِّي، وأنت تَسمَعُ هذا الحديثَ، أو ترى زَوجةً لا تُصَلِّي، أو بِنْتًا لا تُصَلِّي، أو زَميلًا وصاحبًا لك لا يُصَلِّي، وأنت لا يَزالُ يَتَرَدَّدُ في مَسامِعِكَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»، وستَراهُ قَريبًا يُحمَلُ إلى المَقْبَرةِ، ويُوَدَّعُ في قبرِهِ؛ ليَلْقَى عَمَلَهُ هُناكَ؟!

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢١)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم (٤٦٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم (١٠٧٩). قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

الحَديثُ الثَّالثُ: حَديثٌ رواهُ الإمامُ أحمدُ مِن حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَوْصَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ» ومِنها: «**وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتعَمِّدًا؛ فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ**»[1]؛ فهذَا مَن تَرَكَ صَلاةً واحِدةً، فكيف بالَّذي له سَنَواتٌ لا يُصَلِّي؟! له أَشهُرٌ لا يُصَلِّي؟! وصَلاةٌ واحِدةٌ تَبْرَأُ منه ذِمَّةُ اللهِ!

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٨) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٩)

هَجْر القرآن

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنها: هَجرُ القرآنِ.

فإنَّ رَبِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهَى عَن هَجْرِ كَلامِهِ وكِتابِهِ؛ لِما في ذلك مِن تَضْييعِ صِراطِهِ المُستَقيمِ، فمَن رامَ الهِدايةَ والصِّراطَ المُستَقيمَ تلا كِتابَهُ، وتَأَمَّلَهُ، وتَدَبَّرَهُ، وعَمِلَ بما فيه.

ولكَ يا عبدَ اللهِ أنْ تَسْأَلَ نفسَكَ:

- كم تُطالِعُ في كِتابِ اللهِ في يَومِكَ ولَيْلِكَ؟!

- وكم تُطالِعُ مِن مَواقِعِ التَّواصُلِ؟!

- وكم هو وِرْدُكَ في اليَومِ واللَّيْلةِ في كَلامِ اللهِ المُنَزَّلِ، الذي أَنْزَلَهُ هِدايةً للعالمينَ؟!

إنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْزَلَ كِتابَهُ الكَريمَ؛ ليُخْرِجَ به النَّاسَ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ويَهْدِيَهُم صِراطَهُ المُستَقيمَ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

وسمَّى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كِتابَهُ بالذِّكْرِ، وتَكَفَّلَ بحِفظِهِ، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

إنَّ القُرآنَ هو حَبلُ اللهِ المَتينُ؛ مَن استَمْسَكَ به فازَ ورَبِحَ ورَشَدَ، ومَن تَرَكَهُ وأَعْرَضَ عنه ونَسِيَهُ خابَ وخَسِرَ وفَسَدَ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقَد جاءَ في معنى: (حبلِ اللهِ): القُرآنُ، كما ذَكَرَ ذلك ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرِهِ[(١)]، ودَلَّلَ على ذلك بحَديثِ أبي سَعيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ»[(٢)].

بل جاءَ هذا الحَديثُ مُصَرَّحًا به عندَ ابنِ حِبَّانَ في صَحيحِهِ، مِن حَديثِ أبي شُرَيحٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «فَإِنَّ هَذَا القُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»[(٣)].

والسَّبَبُ في لُغةِ العَرَبِ: الحَبلُ المَتينِ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، رقم (٣٧٨٨).

(٣) أخرجه ابن حبان رقم (١٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٨٨، رقم ١٩٤).

فالرَّابِحُ الْمُوَفَّقُ: هُو الذِي يَستَمْسِكُ بكِتابِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَتلُوهُ، ويَتَأَمَّلُهُ، ويَتَدَبَّرُهُ، ويَعمَلُ بما فيه، ويَتَحاكَمُ إليه، ويَسْتَشْفِي به، ومَا إلَى ذلِك ممَّا لَا يُحصى.

وهُنا يقولُ رَبِّي وهو يُرَغِّبُنا في تِلاوةِ كِتابِهِ، ويَأْمُرُنا بتِلاوةِ كِتابِهِ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النمل: ٩١ - ٩٢]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٢٩ - ٣٠].

صوَّرَ لنا رسولُ اللهِ ﷺ الناسَ أَرْبَعةَ أَصْنافٍ ممَّن يَتعامَلُ مع القُرآنِ، قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[(١)]

بيَدَيْكَ يا عبدَ اللهِ أنْ تَختارَ الصِّنفَ الذي تُريدُ، فبيَدَيْكَ أنتَ تَحمِلُ كِتابَ رَبِّكَ، وتَتْلُوهُ آناءَ اللَّيلِ وأَطْرافَ النَّهارِ، وبيَدَيْكَ أنت تَتْرُكُهُ وتَحمِلُ غيرَهُ.

وقَد بيَّنَ لنا ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُقوبةَ مَن تَرَكَ وأَعْرَضَ عن كِتابِهِ، وهَجَرَ كِتابَهُ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبَيِّنًا أنَّ مَن أَعْرَضَ عنِ الآياتِ طُبِعَ على قَلبِهِ، وصُمَّتْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، رقم (٥٤٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن، رقم (٧٩٧)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

آذانُهُ، وحُرِمَ الهِدايةَ والسَّدادَ، فقال سبحانَهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]، فلا يُمكِنُ أنْ يَهتَدِيَ وأنْ يُوَفَّقَ إلى الصَّوابَ: مَن هَجَرَ كِتابَ اللهِ وأَعْرَضَ عن آياتِ اللهِ.

وحَذَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن انتِقامِهِ ممَّن يُعرِضُ عن كِتابِهِ، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

وبيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضًا أنَّ المَعيشةَ الضَّنْكَ ستكونُ لَمن أَعْرَضَ عن كِتابِ اللهِ، فإنَّه يَعيشُ في حياةٍ ضَنكٍ، وفي الآخِرةِ ستكونُ مَعيشَتُهُ ضَنكًا، قال سبحانَهُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤ - ١٢٦].

يقولُ أميرُ المُؤمنينَ عُثْمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو طَهُرَتْ قُلوبُكُمْ ما شَبِعَتْ مِن كَلامِ اللهِ، وما أُحِبُّ أنْ يَأْتيَ عليَّ يومٌ ولا ليلةٌ إلَّا أَنظُرُ في كَلامِ اللهِ، يعني: المُصْحَفَ(١).

ويقولُ الصَّحابيُّ الجَليلُ خَبَّابُ بنُ الأرَتِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَقَرَّبْ إلى اللهِ ما استَطَعْتَ، ولنْ تَتَقَرَّبَ إليه بشَيْءٍ أحبَّ إليه مِن كِتابِهِ(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٦٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة رقم (٣٠٧٢٢)، وأحمد في الزهد رقم (١٩٢)، والحاكم (٢/ ٤٤١).
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فمَن أَعْرَضَ عن كِتابِ اللهِ، ونَسِيَهُ، وهَجَرَهُ، فلا تجدُهُ يَقْرَؤُهُ إلَّا في المُناسباتِ الحَزينةِ أو في المُناسباتِ الدِّينيَّةِ! نعَمْ، فبعضُ النَّاسِ لا يَقْرَأُ القُرآنَ إلَّا حينما يموتُ له مَيِّتٌ أوْ يحِلُّ عليهِ شَهْرُ رَمَضانَ.

وهذا المِسكينُ يقولُ عنهُ ربِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٩ - ٣٠].

فالواجِبُ على المُسلِمِ: أنْ يَجعَلَ القُرآنَ الكريمَ بَرنامجًا في حياتِهِ، ومُرتَبِطًا بحياتِهِ، فيكونُ بينَه وبينَ القُرآنِ صُحْبةً؛ فإنَّ للقُرآنِ صُحْبةً وأَهْلًا.

واعْلَم أنَّ البُيوتَ التي يُقرَأُ فيها القُرآنُ بيوتٌ عامرةٌ، يقولُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ البَيْتَ لَيَتَّسِعُ على أَهْلِهِ، وتَحْضُرُهُ المَلائِكةُ، وتَهْجُرُهُ الشَّياطينُ، ويَكْثُرُ خَيْرُهُ: أنْ يُقْرَأَ فيه القُرآنُ؛ وإنَّ البَيْتَ لَيَضيقُ على أَهْلِهِ -حتَّى وإنْ كان واسِعًا- وتَهْجُرُهُ المَلائِكةُ، وتَحْضُرُهُ الشَّياطينُ، ويَقِلُّ خَيْرُهُ، ألَّا يُقْرَأَ فيه القُرآنُ[1].

فالبُيوتُ التي يُقْرَأُ فيها القُرآنُ لها نورٌ، يُبْصِرُ ذلك النُّورَ أَهْلُ السَّماءِ، وقد جاءَ في الأثرِ: إنَّ البَيْتَ الذي يُقْرَأُ فيه القُرآنُ ليُضِيءُ لأَهْلِ السَّماءِ كما تُضِيءُ السَّماءُ لأَهْلِ الأرْضِ[2].

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٣٥٢).

(٢) أخرجه الضبي في الدعاء (١١٣) بإسناده إلى عبد الرحمن بن سابط من قوله.

إنَّ البُيوتَ العامِرةَ بذِكْرِ اللهِ لها إضاءةٌ، تَكونُ كالنَّجْمِ لأهلِ السَّماءِ، يُبْصِرونَ هذا البيتَ فهُو: بَيْتٌ عامِرٌ، وهذا البَيتَ الذي لا يُقْرَأُ فيه القُرآنَ: بَيْتٌ خَرِبٌ؛ لذا قال ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ البَيْتَ الذي لا يُقْرَأُ فيه القُرآنُ كمَثَلِ البَيتِ الخَرِبِ الذي لا عامِرَ له[(١)].

فالوَصيَّةُ يا عِبادَ اللهِ:

أنْ نُعيدَ النَّظَرَ في عَلاقَتِنا بكِتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فمَن كان له هاجِرًا فلْيَأْخُذِ العَهْدَ على نفسِهِ مِن الآنَ أنْ يكونَ له وِرْدٌ مِن القُرآنِ.

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥٩٩٨).

(٢٠)

الحَلِفُ بغَيرِ اللهِ

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى الشَّارعُ الحَكيمُ عنها: الحَلِفُ بغَيرِ اللهِ.

وقَد أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنَّ الحَلِفَ بغَيرِ اللهِ: شِرْكٌ باللهِ[(١)].

ومِن صُورِ الحَلِف بغَيْرِ اللهِ: كمَنْ حَلَفَ بالأَنْبياءِ، أو حَلَفَ بالمَلائِكةِ، أو الأَوْلياءِ، أو حَلَفَ بالأَمْوَاتِ، أو حَلَفَ بالنِّعْمةِ، أو الذِّمَّةِ، أو الكَعْبَةِ، أو الشَّرَفِ، أو الأَمانةِ، أو حَلَفَ بالطَّلاقِ، أو حَلَفَ بالظِّهارِ، أو حَلَفَ بصَلاتِهِ، أو صَلاةِ أُمِّهِ وأبيهِ.

وكلُّ ذلك أَيْمَانٌ مُحَرَّمةٌ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أَمَرَنا أنْ نَحْفَظَ هذه الأَيْمانَ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾[المائدة:٨٩].

ونَقَلَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرِهِ، عندَ قَولِهِ تَعالَى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]: قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: الأَنْدادُ هو الشِّركُ، وهُو أَخْفَى مِن دَبيبِ النَّمْلِ على صَفاةٍ سَوْداءَ في ظُلمةِ اللَّيلِ، وهو أنْ يَقولَ: لا واللهِ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٦٩)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

وحَياتِكَ يا فُلانُ، وحَياتي، واللهِ وحَياتِكَ يا فُلانُ، وحَياتِي[١].

فهذا شِرْكٌ، وهذا جَعْلٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْدادًا، تُعَظَّمُ في هذه النُّفوسِ.

وَقَد سَمِعَ يَوْمًا ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَجُلًا يقولُ: لا، والكَعبةِ، فقالَ ابنُ عُمَرَ: لا يُحلَفُ بغَيرِ اللهِ؛ إنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ**»[٢].

والصَّحابةُ -رضيَ اللهُ تَعالَى عنهُم- والتَّابعونَ مِن بعدِهِم لَا يُؤْثَرُ عن أحدِهِم أَنَّهُ قال يَوْمًا: هل هذا الشِّركُ شِرْكٌ أَصْغَرُ أو أَكْبَرُ؟ أو هَل هذا الكُفرُ مُخرِجٌ مِن المِلَّةِ أو لا؟ إنَّما كانوا يقولونَ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

وَقَد سَمِعَ النَّبيُّ ﷺ يَوْمًا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحلِفُ بأَبِيهِ، كعادَتِهِم في الجاهِليَّةِ، يَقولُ: لَا وَأبي، فقالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**» فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الفَورِ: فما حَلَفتُ بها ذاكِرًا ولا آثِرًا[٣].

وكم نَرَى في أَحْوالِ النَّاسِ اليَوْمَ، ممَّن عَظَّمَ المَحْلوفَ به، عَظَّمَ الأَمانةَ، فقالَ: أَمانةً، أنْ تَفْعَلَ كذا، وعَظَّمَ النِّعْمةَ، فقال: وهذه النِّعمةَ، وعَظَّمَ صاحبَ القَبرِ، فقال: وسَيِّدي فُلانٍ، وعَظَّمَ الكَعْبةَ، فقال: والكَعْبةِ المُشَرَّفةِ.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٦٩)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، رقم (٦٦٤٧)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكلُّ ذلك شِرْكٌ وكُفرٌ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بل وَجَدْنا مَن إذا حُلِفَ له باللهِ لا يُصَدِّقُ، وإذا حُلِفَ له بتُربةِ المَرْحومِ، ودَفْنةِ المَرْحومِ، يُصَدِّقُ، كما سيأْتي بعدَ قليلٍ.

يَقولُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِهِ «فتحِ الباري»: قال العُلَماءُ: السِّرُّ في النَّهيِ عنِ الحَلِفِ بغَيرِ اللهِ، أنَّ الحَلِفَ بالشَّيءِ يَقْتَضي تَعظيمَهُ، والعَظَمَةُ في الحَقيقةِ إنَّما هيَ للهِ وَحْدَهُ[١]، فهَؤُلاءِ حَلَفوا بغيرِ اللهِ؛ لأَنَّهم عَظَّمُوا هذا الشَّيْءَ أَكْثَرَ مِن تَعْظيمِهِم للهِ.

ولهذا جاءَتْ أحاديثُ عن النَّبيِّ ﷺ تَنْهَى عن هذا الأَمْرِ، والمُؤْمِنُ يَكْفيهِ حَديثٌ واحِدٌ، ولَكِنِّي أُذَكِّرُ نَفْسي وَإِيَّاكُم بأَرْبَعةِ أحاديثَ:

الحَدِيثُ الأَوَّلُ: وهُو مَا جاءَ في صَحيحِ البُخاريِّ، مِن حَديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٢].

الحَديثُ الثَّاني: في حِلْيَةِ الأَوْلِياءِ لأَبي نُعَيمٍ، قال ﷺ: «**احْلِفُوا بِاللهِ، وَبَرُّوا، وَاصْدُقُوا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يُحْلَفَ بِهِ**»[٣]، وفي رِوايةٍ: «**فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَكْرَهُ أَنْ يُحْلَفَ إِلَّا بِهِ**»[٤].

الحَديثُ الثَّالِثُ: عندَ الطَّبَرانِي في مُعجَمِهِ الكَبيرِ، يقولُ ﷺ: «**كُلُّ يَمِينٍ يُحْلَفُ بِهَا دُونَ اللهِ شِرْكٌ**»[٥] أيَّ يَمينٍ يَخطِرُ على بالِكَ؛ حَلِفٌ بالشَّرَفِ، أو حَلِفٌ

---

(١) فتح الباري (١١/ ٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (٧/ ٢٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه حمزة السهمي في تاريخ جرجان (ص٣٢٩).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣/ رقم١٣٩٥٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

بفُلانٍ، كلُّ ذلك شِرْكٌ.

الحَديثُ الرَّابعُ: جاءَ في سُنَنِ أبي داودَ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا**»(١).

أمَّا مَن حَلَفَ بغيرِ اللهِ ناسيًا فماذا يَفعَلُ؟

الجوابُ: قَد حَصَلَ هذا لسَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاءَ في سُنَنِ ابنِ ماجَهْ، قالَ: حَلَفْتُ باللَّاتِ والعُزَّى، فَقَالَ ﷺ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ انْفُثْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا، وَتَعَوَّذْ، وَلَا تَعُدْ**»(٢).

أيْ: وتَعَوَّذْ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ لأنَّ الأَمْرَ عَظيمٌ؛ والخَطَأَ كبيرٌ، والجُرْمَ يَصِلُ إلى حَدِّ الكُفرِ والشِّرْكِ، ولكنْ مع كُلِّ أَسَفٍ نَجِدُ أنَّ النَّاسَ قد تَساهَلُوا في ذلك.

ويقولُ ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَحْلِفَ باللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ وَأَنَا صَادِقٌ»(٣)؛ قَد مَرَّ أنَّ النَّاسَ -معَ الأَسَفِ الشَّديدِ- وَصَلَ بهم عَدَمُ تَعْظيمِهِم للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ إذا حَلَفَ له أَحَدٌ باللهِ لا يُصَدِّقُهُ، فَإِذَا قَالَ: واللهِ العَظيمِ حَصَلَ كذا وكذا، قَالَ: لا أُصَدِّقُ، احْلِفْ برَأْسِ عِيالِكَ، أَوِ احْلِفْ بدَفْنَةِ والِدَيْكَ، فأينَ اللهُ في قلبِ هذا الإنْسانِ؟!

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالأمانة، رقم (٣٢٥٣)، من حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف باللات والعزى، رقم (٣٧٧٦)، وابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يحلف بغير الله، رقم (٢٠٩٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ رقم٨٩٠٢)، وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (٧/ ٢٦٧).

وقَدْ نَبَّهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لهذا الأَمْرِ، فقالَ: «مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ» رواهُ ابنُ ماجَهْ[1]. فهاهُو ﷺ يُرَبِّي الأُمَّةَ، فإذا حَلَفْتَ باللهِ فكُنْ صادِقًا؛ لأنَّ النَّاسَ ما جاءَهُم هذا الأَمْرُ إلَّا لأنَّهُم وَجَدُوا مَن يَحْلِفُ باللهِ كاذِبًا، ولا يَحلِفُ بغيرِهِ إلَّا وهو صادِقٌ، فانْتَشَرَ عندَ النَّاسِ عَدَمُ تَعْظِيمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندَ الحَلِفِ

وجاءَ في سُنَنِ ابنِ ماجَهْ أيضًا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «رَأَى عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ -رآهُ بِعَيْنِهِ- فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، قَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ بَصَرِي»[2]؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُعَظَّمٌ في قَلْبِهِ، فكَذَّبَ بَصَرَهُ حينَما حَلَفَ الحالِفُ السَّارِقُ باللهِ.

✖ ⌑ ✖

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الكفارات، باب من حلف له بالله فليرض، رقم (٢١٠١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، رقم (٣٤٤٤)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، رقم (٢٣٦٨)، وابن ماجه: كتاب الكفارات، باب من حلف له بالله فليرض، رقم (٢١٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢١)

الجَورُ

عِبادَ الله!

ومنِ المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنها: الجَورُ، وهو المَيلُ عن الاستِقامةِ.

وهو صورةٌ مِن صُوَرِ الظُّلمِ، وهو خِلافُ العَدلِ في الأَقْوالِ والأَفْعالِ، وسائِرِ التَّعامُلاتِ.

وقد أَرسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرُّسُلَ، وأَنزَلَ الكُتُبَ، وشَرَعَ الشَّرائِعَ؛ لإقامةِ العَدلِ، ومُحارَبةِ الجَورِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد:٢٥].

وفي مَواضِعَ عِدَّةٍ مِن كِتابِ اللهِ جاءَ التَّأكيدُ على مَسألَةِ العَدلِ، والنَّهيِ عنِ الظُّلمِ والجَورِ، مِن ذلك:

- قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء:٥٨].

- وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠].

وقَد رَغَّبَ رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القِسطِ، وهو صُورةٌ مِن صُوَرِ العَدلِ، وامتَدَحَ

المُقسِطينَ العادلينَ، وبيَّنَ مَحبَّتَهُ لهم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

وجاءَ في «سُنَنِ النَّسائيِّ» من حديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي عُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَمَنْشَطِنَا وَمَكَارِهِنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالعَدْلِ أَيْنَ كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[(١)].

وقَد وَعَدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَهلَ العَدلِ والإنْصافِ بمَوعِدٍ كَريمٍ أَخبَرَ به رَسولُ اللهِ ﷺ، ففي «سُنَنِ النَّسائيِّ» مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَلَى يَمِينِ الرَّحْمَنِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»[(٢)].

والمُقْسِطونَ، أي: العادلونَ، المائِلونَ عن الجَورِ.

وجاءَ في حديثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ:**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورا تنكرونها»، رقم (٧٠٥٥ - ٧٠٥٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٧٠٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر..، رقم (١٨٢٧)، والنسائي: كتاب آداب القضاة، باب فضل الحاكم العادل في حكمه، رقم (٥٣٧٩).

خَشْيَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ، وَالقَصْدُ فِي الغِنَى وَالفَقْرِ، وَالعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ»[(١)].

إنَّ الأُمَمَ والحضاراتِ لا تَدومُ ولا تقومُ إلَّا بالعَدلِ، وكذلِكَ كلُّ كِيانٍ صَغيرًا كان أو كَبيرًا، بَدءًا ببَيتِكَ ودارِكَ، وانتِهاءً بحَضارتِكَ وأُمَّتِكَ، فإذا تَخَلَّتْ الأُمَمُ عنِ العَدلِ ماتَتْ وهَلَكَتْ.

قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَإِنَّ النَّاسَ لم يَتَنَازَعُوا في أَنَّ عاقِبةَ الظُّلمِ وَخيمةٌ، وَعاقِبةَ العَدلِ كَريمةٌ؛ ولهذا يُروى أنَّ اللهَ يَنصُرُ الدَّولةَ العادِلةَ وإنْ كانَتْ كافِرةً، ولا يَنصُرُ الدَّولةَ الظَّالِمةَ وإنْ كانَتْ مُؤْمِنةً[(٢)].

وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: الدُّنيا تَدومُ بالعَدلِ مع الكُفرِ، ولا تَدومُ بالظُّلمِ مع الإسلامِ[(٣)].

إنَّ هذا هُو العَدلُ، المائلُ عن الجَورِ والظُّلمِ، الذي جاءَ في التَّحذيرِ من ضِدِّه قَولُهُ ﷺ: **«مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولًا، لَا يَفُكُّهُ إِلَّا العَدْلُ، أَوْ يُوبِقُهُ الجَوْرُ»**[(٤)].

وقالَ جابِرٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْسِمُ غَنِيمَةً، فَإِذَا بِرَجُلٍ يَقُولُ لَهُ:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٥٤٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

اعْدِلْ! فَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ شَقِيتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ»[١].

وذاتَ يَومٍ أَرسَلَ أَحَدُ الوُلاةِ لعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خامِسِ الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ: إنَّ مَدينَتَنا قَدْ خَرِبَتْ، فلو رَأَى أَميرُ المُؤْمِنينَ أَنْ يُرْسِلَ لنا مالًا نُصلِحُ به حُصونَنا وطُرُقَنا؛ فكَتَبَ له عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيزِ كِتابًا قال فيه: حَصِّنْها بالعَدْلِ، ونَقِّ طُرُقَها مِن الظُّلمِ[٢].

اللَّهُمَّ إنَّا نَسأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنا مِن أَهْلِ العَدلِ والإنْصافِ، وأَعِذْنا يا رَبَّنا مِن الجَورِ والظُّلمِ والإجْحافِ.

ومَيادينُ الجَورِ مُتَعَدِّدةٌ، ولكلِّ مَيدانٍ جاءَ تَوجيهٌ مِن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، في كِتابِهِ، أو على لِسانِ رَسولِهِ ﷺ، فمَن جارَ في عِبادَتِهِ مع اللهِ فوَقَعَ في الشِّركِ والانحِرافِ، يُذَكَّرُ بقَولِ لُقمانَ لابنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[لقمان:١٣].

ومَن جارَ مع نفسِهِ فأَهمَلَها وأَهلَكَها، يُقالُ له كما قالَ سَلمانُ لأبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصدَّقَ ذلك القولَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، رقم (٣١٣٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٣٠٥).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، رقم (١٣٦٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وبنحوه عند البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، رقم (١٩٦٨)، من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومَن جارَ مع زَوجاتِهِ -إنْ كان له أَكثَرُ مِن زَوجةٍ- ومالَ إلى إحداهُنَّ دونَ الأُخرى، فيُقالُ له كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَشِقُّهُ مَائِلٌ»[(١)].

ومَن جارَ في عَطِيَّتِهِ ونِحْلَتِهِ وهِبَتِهِ لأَولادِهِ قيلَ له كما قال رسولُ اللهِ ﷺ لبشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما جاءَهُ يُشهِدُهُ على عَطاءٍ أَعطاهُ لابنِهِ النُّعمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «اذْهَبْ! فَإِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ»[(٢)].

ومَن جارَ مع خُصومِهِ ومُخالِفِيهِ فإنَّه يُقالُ له كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة:٨] حتَّى وإنْ كانوا أَعداءً ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٨].

ومَن جارَ في قولِهِ قيلَ له كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[الأنعام:١٥٢].

فالحَذَرَ الحَذَرَ مِن أنْ يَجورَ الإنسانُ على غيرِهِ؛ فإنَّ القاعدةَ تقولُ: مَن وُفِّقَ إلى العَدلِ مَع مَن هو دونَهُ رُزِقَ العَدلَ مِمَّنْ هو فَوقَهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٧)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم (٢١٣٣)، والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم (١١٤١)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم (٣٩٤٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم (١٩٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٠)، ومسلم: كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم (١٦٢٣).

(٢٢)

الجَهْلُ بالغاية مِنَ الخَلْق

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ الَّتي نَهَى الشَّارعُ الحَكيمُ عنها: الجَهلُ بالغايةِ التي خُلِقَ الخَلْقُ مِن أَجْلِها، والجَهلُ بالمَصيرِ الَّذي يَصيرونَ إليه.

وممَّا يُعْلَم أنَّ حياةَ الإنْسانِ تَسيرُ وتَتَشَكَّلُ بحَسَبِ ما يَعتَقِدُ ويَعلَمُ بالغايةِ الَّتي خُلِقَ مِن أَجْلِها، في هذه الدُّنْيا، وبالمآلِ الذي يَصيرُ إليه.

وممَّا يُعْلَم أيضًا أنَّ الإنْسانَ الذي يَجهَلُ هذيْنِ الأَمْرَيْنِ فإنَّهُ يَعيشُ في هذه الحَياةِ الدُّنْيا تائِهًا، حائِرا، ضَائِعًا، مُتَخَبِّطًا، كما رَدَّدَ ذاك الشَّاعرُ التَّائِهُ المُتَخَبِّطُ:

جِئْتُ لا أَعْلَمُ مِن أين؟ ولكنِّي أَتَيْتُ!

ولَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ!

كيفَ جِئْتُ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي؟ لَسْتُ أَدْرِي!

أَوَرَاءَ القَبْرِ بَعْدَ المَوْتِ بَعْثٌ وَنُشُورْ؟ فَحَياةٌ فَخُلودٌ أَمْ فَناءٌ فدُثورْ؟!

أَكَلامُ النَّاسِ صِدْقٌ أَمْ كَلامُ النَّاسِ زُورْ؟!

أَصحيحٌ أنَّ بعضَ النَّاسِ يَدْري؟! لَسْتُ أَدْرِي![1]

---

(١) انظر: ديوان الجداول لإيليا أبو ماضي (ص:١٣٩).

فهَاهُو يُعيشُ في فَضاءِ: أنْ لا أَدْرِي، ويَعيشُ على عَقيدةِ اللاأَدْرِيِّينَ، فلا يَدْري لِمَا هو مَوْجودٌ على هذه الأَرْضِ؟!

وللأَسَف الشَّديدِ فبعضُ أبناءِ المُسلمينَ يَعيشُ هذه الحياةَ، لا يَعْلَمُ لِمَ وُجِدَ فيها ولا إلى أين يَصيرُ؟ فهذَا واقِعُه يَقولُ ذلك، ولِسانُ حالِهِ يُرَدِّدُ كذَلِك، فهَاهُوَ يَأْكُلُ لِيَعيشَ، ويَعيشُ لِيَأْكُلَ، يَدُورُ في دائِرةٍ مُفْرَغَةٍ.

وقَد خاطَبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَؤُلاءِ اللَّأَدْرِيِّينَ فقال لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[المؤمنون:١١٥-١١٦] سُبحانَهُ وتَنَزَّهَ، حاشاهُ أنْ يَخلُقَ خَلْقًا عَبَثًا بلا حِكْمةٍ لِوجُودِهم.

وفِي المُقابِلِ: تَجِدُ الإنْسانَ المُؤْمِنَ المُوَحِّدَ يَعلَمُ لِمَ خُلِقَ، وإلى أينَ يَصيرُ، ويُرَدِّدُ قَوْلَ القائِلِ:

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا ... لَكَانَ المَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيِّ

وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... وَنُسْأَلُ بَعْدَ ذَا عَنْ كُلِّ شَيِّ[1]

وفي سُورةِ القيامةِ يَقْرَأُ قَولَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[القيامة:٣٦ - ٤٠] سُبحانَكَ اللَّهُمَّ، فَبَلَى! سُبحانَكَ اللَّهُمَّ، فَبَلَى!.

نَعَمْ، خَلَقَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلْقَهُ لغايةٍ واحِدةٍ، وإلى مَصيرٍ واحِدٍ؛ فقَدْ خَلَقَهُم

---

(١) اختلف في قائله، فقيل: علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل: أبو دُلَف الشاعر، انظر: الفاضل للمُبرّد (ص:١٣)، وأدب الدنيا والدين للماوَرْدي (ص:١٢٠)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٤٠٧).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعِبادَتِهِ، وإفرادِهِ بِهَا، وذلِكَ على عِلمٍ وبَصيرةٍ وإخلاصٍ وصِدْقٍ.

فمَن لم يَعْلَم بالغايةِ الَّتي خُلِقَ مِن أَجْلِهَا، فلْيَعْلَمْ أَنَّه سيَذْهَبُ إلى غايةٍ أُخْرَى، فمَن لم يَعْبُدِ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَزْمًا سيَعْبُدُ غيرَهُ؛ ولهذَا يَقولُ نَبيُّنا ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وعَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتُقِشَ»[(١)].

ويَقولُ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في نُونِيَّتِهِ[(٢)]:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

فمَنْ لَمْ تَكُنْ له غايةٌ واحدةٌ تَعَدَّدَتْ عندَهُ الغاياتُ، فغايَتُه نَفسُهُ، وشَيْطانُهُ، وهَواهُ، والدُّنْيا؛ لذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[(٣)].

فهذا الكَونُ كُلُّهُ، سَماؤُهُ وأَرْضُهُ، وما فيهما، وما بينَهُما، ما خَلَقَ اللهُ فِيهِمَا مِن خَلْقٍ إِلَّا وجَعَلَ له غايةً وحِكْمةً، وجَعَلَ له مَصيرًا ومآلًا، ومَعَ عِلْمِ هذا الخَلْقِ بِهَذا فإنَّ بعضَ بَنِي آدَمَ لا يَعْلَمُونَ!.

فنقول: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ الأَرْضَ وبَيَّنَ الحِكْمةَ منها، فقَالَ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الكافية الشافية (ص:٣٠٨).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ٣٠، رقم (٢٤٦٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، رقم (٤١٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٠ - ١٣]، ثُمَّ بَيَّنَ مآلَ هذه الأَرْضِ فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[إبراهيم:٤٨].

وخَلَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجِبالَ وجَعَلَ لها حِكْمةً، فقال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧]، وجَعَلَ لها مَصيرًا ومآلًا، فقَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[طه:١٠٥ - ١٠٧].

وخَلَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأَنْعامَ، وسائِرَ الدَّوابِّ، خَلَقَها لِحِكْمةٍ، فقَالَ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٥ - ٨]، وبَيَّنَ مَآلَ هذه الدَّوابِّ والأَنْعامِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨].

ثُمَّ يَأْتي الإنْسانُ بعدَ هَذا كلِّه، فيَجهَلُ هذه الحَقيقةَ!

وهذا الكَوْنَ كُلَّهُ بما فيه! المُتَحرِّكَ فيه والسَّاكِنَ! كُلُّهُ يَسْجُدُ للهِ ويُسَبِّحُ، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[الحج:١٨].

ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾[الإسراء:٤٤].

وقَد جاءَ عندَ الطَّبَرانيِّ مِن حَديثِ عَمرِو بنِ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَا تَسْتَقِلُّ الشَّمْسُ فَيَبْقَى شَيْءٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ إِلَّا سَبَّحَ اللهَ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ الشَّيَاطِينِ وَأَغْبِيَاءِ بَنِي آدَمَ»[1]، فلَا تَرتَفِعُ الشمسُ وتَعْلُو كُلَّ صَبَاحٍ إلا سبَّح اللهَ كُلُّ الكَوْنِ عدَا هَؤُلاءِ الَّذينَ جَهِلُوا أو تَجاهَلُوا الغايةَ الَّتي مِن أَجْلِهَا خُلِقُوا، والمآلَ الَّذي يَصيرونَ إليه.

فالغايةُ الَّتي مِن أَجْلِها خُلِقْنا: أَنْ نَعبُدَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأنْ نُقيمَ حَياتَنا كُلَّها على طاعةِ اللهِ، فإنْ تَحَرَّكْنَا فلِلَّهِ، وإنْ سَكَنَّا فَلِلَّهِ، وإنْ أَعْطَيْنَا أَوْ أَخَذْنَا فَلِلَّهِ، وإنْ غَضِبْنَا أو رَضِينَا فَلِلَّهِ، وإنْ صَلَّيْنَا وصُمْنَا وزَكَّيْنا فلِلَّهِ، فهذه هي الغايةُ العُظمَى.

ثُمَّ أنتَ فِي حالِ رِضاكِ، وفي حالِ غَضَبِكَ، وفي حالِ غِناكَ، وفي حالِ فَقْرِكَ، وفي حالِ قُوَّتِكَ، وفي حالِ ضَعْفِكَ، وفي حالِ صِحَّتِكَ، وفي حالِ مَرَضِكَ، يَنْبَغي أنْ تَكونَ للهِ، والسَّببُ أنَّكَ تَعلَمُ المَصيرَ الَّذي تَصِيرُ إليه.

ومَصيرُنا يَتَحَدَّدُ بحَسْبِ خُطُواتِنا على هذا المَنْهَجِ الصَّحيحِ، قالَ رَبِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦ - ٥٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢ - ١٦٣].

فكلُّ مَن يَجْرِي عليه قَلَمُ التَّكْليفِ، يَسيرُ مِن أوَّلِ لَحْظةِ بُلوغِهِ إلى آخِرِ نَفَسٍ،

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٩٦٠).

لا يَتَوَقَّفُ عن العَمَلِ لأَجْلِ هذه الغايةِ، ولا العَمَلِ إلى ذلك المَصيرِ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]. أي: إلى أنْ يَموتَ الإنْسانُ.

✖ ⌑ ✖

(٢٣)
الاستِعْجالُ

عِبَادَ اللهِ!

وَمِنَ المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نهى الشَّارعُ الحكيمُ عنها: الاستِعْجالُ.

وهُو إرادةُ تَحقيقِ ما يَخطِرُ على البالِ في الحالِ، دونَ تَفكُّرٍ، ورَوِيَّةٍ، ومُشاوَرةٍ، بتَطَلُّبِ الأَشْياءِ قبلَ أَوانِها، وهُو طَبيعةٌ وخُلُقٌ جُبِلَ عليه الإنْسانَ.

وقد نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنه في قولِه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧].

وهُو أداةٌ ووَسيلةٌ يَتَّخِذُها الشَّيطانُ ليُهلِكَ بها بَني الإنْسان؛ لذا جاءَ في شُعَبِ الإيمانِ للإمامِ البَيْهَقيِّ، مِن حَديثِ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنِ النبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»[1].

ويُفَصِّلُ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في كِتابِهِ «الرُّوحِ» مبيِّنًا أَهَمِّيَّةَ هذا الأَمرِ أَيَّمَا بَيانٍ، فيَقولُ: ولهذا كانتِ العَجَلةُ مِن الشَّيْطانِ؛ فإنَّها خِفَّةٌ وطَيشٌ، وحِدَّةٌ في العَبدِ، تَمنَعُهُ مِن التَّثَبُّتِ والوَقارِ والحِلمِ، وتُوجِبُ له وَضْعَ الأَشْياءِ في غيرِ مَوْضِعِها، وتَجلِبُ عليه أَنْوَاعًا مِن الشُّرورِ، وتَمنَعُهُ أَنْوَاعًا مِن الخَيْرِ، وهي قَرينةُ

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٢٥٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٠٤)، وفي شعب الإيمان (٤٠٥٨).

النَّدامةِ، فَقَلَّ مَنِ اسْتَعْجَلَ إلَّا نَدِمَ[١].

وللاستِعْجالِ أَسْبابٌ، وأَعظَمُها سَبَبانِ:

أَمَّا السَّبَبُ الأَوَّلُ: فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الإنْسانَ، وجَعَلَ في طِينَتِهِ العَجَلَةَ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧]، وجَعَلَ مِن صِفاتِهِ اللَّازمةِ أَنَّهُ عَجولٌ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[الإسراء:١١].

والسَّبَبُ الثَّاني: عَدَمُ إدراكِ العَواقِبِ والآثارِ السَّيِّئةِ للعَجَلةِ، والقاعِدةُ تَقولُ: مَنِ اسْتَعْجَلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أَوانِهِ عُوقِبَ بِحِرْمانِهِ.

يقولُ أبو حاتِمٍ البُسْتيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- وهو يُوَصِّفُ لنا حالَ العَجِلِ تَوْصيفًا دَقيقًا: والعَجِلُ يقولُ قبلَ أنْ يَعْلَمَ، ويُجيبُ قبلَ أنْ يَفْهَمَ، ويَحمَدُ قبلَ أنْ يُجَرِّبَ، وَيَذُمُّ بَعْدَما يَحْمَدُ، ويَعْزِمُ قبلَ أَنْ يُفَكِّرَ، ويَمْضي قبلَ أنْ يَعْزِمَ، والعَجِلُ تَصْحَبُهُ النَّدامةُ، وتَعتَزِلُهُ السَّلامةُ، والعَرَبُ كانت تُكَنِّي العَجَلةَ بأُمِّ النَّداماتِ[٢].

ولهَذا يَقولُ الشَّاعِرُ[٣]:

لَا تَعْجَلَنَّ لِأَمْرٍ أَنْتَ طَالِبُهُ ... فَقَلَّ مَا أَدْرَكَ المَطْلُوبَ ذُو العَجَلِ

فَذُو التَّأَنِّي مُصِيبٌ فِي مَقَاصِدِهِ ... وَذُو العَجَلَةِ لَا يَخْلُو عَنِ الزَّلَلِ

أَمَّا ميادينُ التَّعَجُّلِ فكثيرةٌ، لكنْ أُذَكِّرُ نَفْسي وإيَّاكُم بِبَعْضِها:

١- التَّعَجُّلُ في قِراءةِ القُرآنِ؛ فإنَّ أحدَهُم يَستَعْجِلُ في قِراءةِ القُرآنِ لِيَخْتِمَ

---

(١) الروح (ص:٢٥٨).

(٢) روضة العقلاء (ص:٢١٧).

(٣) البيتان ذكرهما الزمخشري في ربيع الأبرار (ص: ١٩١) ولم ينسبهما لأحد.

السُّورةَ، أو لِيَخْتِمَ الجُزْءَ، دونَ الوُقوفِ عندَ رَسائِلِ القُرآنِ وأَوامِرِهِ ونَواهِيهِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قالَ لنَبيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه:١١٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنَبيِّهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦].

وقَد أوصَانَا الصَّحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بخَمسٍ وَصايا عندَ قِراءةِ القُرآنِ، فقال: لا تَنْثُروهُ نَثْرَ الرَّمْلِ، ولا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ؛ قِفُوا عندَ عَجائِبِهِ، وَحَرِّكُوا به القُلوبَ، ولا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكِمْ آخِرَ السُّورةِ[(١)].

٢- **التَّعَجُّلُ عندَ الدُّعاءِ**: فلا تَستَعْجِلْ، ولكِنْ كيفَ يَستَعْجِلُ المَرْءُ عندَ الدُّعاءِ؟

نَقولُ: هناكَ ثلاثُ صُوَرٍ مِنَ الاستِعْجالِ في الدُّعاءِ:

الصُّورةُ الأُولى: أنْ تَدْعُوَ اللهَ قبلَ أنْ تُثْنِيَ عليه وتَحمَدَهُ، وأنْ تَدْعُوَ اللهَ قبلَ أنْ تُصَلِّيَ على النَّبيِّ ﷺ.

وقَد جاءَ في سُنَنِ التِّرْمِذيِّ، مِن حديثِ فَضالةَ بنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فَلَمَّا قَعَدَ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«عَجِلْتَ أَيُّهَا المُصَلِّي، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ، فَاحْمَدِ اللهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَلَيَّ، ثُمَّ ادْعُهُ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه الآجري في أخلاق أهل القرآن (١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٨٣).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨١)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب، رقم (٣٤٧٦)، والنسائي: كتاب السهو، باب التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة، رقم (١٢٨٤).

الصُّورةُ الثَّانيةُ: الدُّعاءُ على النَّفسِ في حالِ الغَضَبِ والطَّيْشِ والخِفَّةِ؛ فقد يَدْعو الإنْسانُ على نفسِهِ، أو على وَلَدِهِ، أو على مالِهِ، وهذا نَوعٌ مِنَ الاستِعْجالِ.

وقَد جاءَ في صحيح مُسلمٍ، مِن حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال نَبيُّنا ﷺ: «**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ؛ لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَاعَةَ نَيْلٍ، فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ**»(١).

الصُّورةُ الثَّالثةُ: أنْ يَدْعُوَ الإنْسانُ يَوْمًا أو يَومَينِ، أو عَشَرةً، أو شَهرًا، أو سَنةً، ثم ما يُستجابُ له، فيَترُكَ الدُّعاءَ، وهذا مِن الاستِعْجالِ.

وقَد جاءَ في الصَّحيحين، مِن حديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقولُ نَبيُّنا ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ، دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»(٢).

وعليه أنْ يَتَأَمَّلَ حينما دَعا مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو نَبيٌّ مُرْسَلٌ، وأَمَّنَ على دُعائِهِ هَارونُ، وهو نَبيٌّ مِن الأَنْبياءِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومعَ ذلك تَأَخَّرَتِ الإجابةُ، فماذا قال مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دُعائِهِ؟

يُخبِرُنا ربُّنا عَزَّوَجَلَّ في كتابِه حيثُ قالَ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨] فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[يونس:٨٩].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم (٣٠٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، رقم (٦٣٤٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل (٢٧٣٥).

وكان ذلك كما قال مُجاهِدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعدَ أَرْبَعينَ سَنةً[١]، فالدَّاعي موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والمُؤَمِّنُ هَارونُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومعَ ذلِكَ كانتِ الإجابةُ بعدَ أَرْبَعينَ سَنةً.

الصُّورةُ الرَّابعةُ: الاستِعْجالُ في الوُضوءِ.

وفي صَحيحِ مُسلِمٍ: قال عبدُ اللهِ بنُ عَمرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ عائدٌ مِن مَكَّةَ إلى المَدينةِ، استَعْجَلَ بعضُ الصَّحابةِ في الوُضوءِ؛ ليُدرِكُوا الوَقْتَ قبل خُروجِهِ، قال: فتَوَضَّؤُوا وهم عِجالٌ، فانْتَهَيْنا إليهم -أي: وَصَلْنا إليهم- وأَعْقابُهم تَلوحُ، لم يَمَسَّها الماءُ، فقال: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ! وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ!**»[٢].

فمِن أثَرِ العَجَلةِ تَرَكوا بعضَ مَواضِعِ الوُضوءِ، فما كانَ مِنَ النبيِّ ﷺ إلَّا أنْ نبَّهَهُم هَذا التَّنبيهَ الشَّديدَ؛ لَمَّا رأى تِلكَ الأَعْقابَ لم يَمَسَّهَا الماءُ.

الصُّورةُ الخامِسةُ: أنْ يَسْتَعْجِلَ الإنْسانُ في مَشْيِهِ، أوْ يَمْشي مَشْيَ المُتَماوِتِ البَطيءِ.

وقَد جاءَ في الصَّحيحين، مِن حديثِ أَبِي قتادةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي إذْ سَمِعَ جَلَبَةَ رِجَالٍ -أيْ: أَصْوَاتًا ولَغَطًا- فلمَّا انْتَهَى مِن صَلَاتِهِ قَالَ: «**مَا شَأْنُكُمْ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتَعْجَلْنَا إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَلَا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةَ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**»[٣].

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٩٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب غسل الرجلين، ولا يمسح على القدمين، رقم (١٦٣)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (٢٤١)، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم (٦٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٣).

أَمَّا العَوَاقِبُ السَّيِّئَةُ وَالآثَارُ الخَطِيرةُ للاستِعْجالِ:

فإنَّهُ إذا كان في العَمَلِ قد يُبطِلُ العَمَلَ، كالَّذي يُصَلِّي مُستَعْجِلًا، فلا يُتِمُّ الرُّكوعَ ولا السُّجودَ، كما جاءَ في صحيحِ البُخاريِّ: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ المَسْجِدَ، وصَلَّى، والنَّبيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ أَتى إِلَى النَّبيِّ ﷺ فسَلَّمَ عليْهِ، فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فَرَجَعَ، فَصَلَّى كَصَلَاتِهِ الأُولَى، ثُمَّ رَجَعَ، وَسَلَّمَ، وَقَعَدَ، فقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، ففَعَلَ الثَّالثةَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَا أُحْسِنُ إِلَّا هَذَا، فَعَلِّمْنِي.

فعَلَّمَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ كيف يُصَلِّي، فقال له: «**إِذَا رَكَعْتَ فَارْكَعْ مُطْمَئِنًّا، فَإِذَا رَفَعْتَ فَاعْتَدِلْ فِي قِيَامِكَ، فَإِذَا سَجَدْتَ فَاطْمَئِنَّ فِي سُجُودِكَ، فَإِذَا رَفَعْتَ فَاطْمَئِنَّ فِي قِيَامِكَ**»[(١)].

فَعَلَّمَهُ كيفَ يَطْمَئِنُّ في صَلاتِهِ؛ لأنَّ المُستَعْجِلَ لا صَلاةَ له، وذلِكَ إذا ما أَتَمَّ فيها القيامَ ولا الرُّكوعَ ولا السُّجودَ، ولا في المَواضِعِ التي يَنْبَغي فيها الاطْمِئْنانُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب اقرأ ما تيسر معك من القرآن، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢٤)

النَّهيُ عن إضاعةِ الوَقتِ

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ الَّتي نَهَى الشَّارعُ الحَكيمُ عنها: النَّهيُ عن إضاعةِ الوَقتِ.

فالوَقْتُ هو الحياةُ، وَهُوَ أَغْلَى وِعاءٍ يَضَعُ العَبدُ فيه عَمَلَهُ الصَّالحَ، وَهُوَ اللَّيلُ والنَّهارُ، الَّذي قال اللهُ فيه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[الفرقان:٦٢].

وَهوَ أَعظَمُ مُستَودَعٍ، وأَعظَمُ خَزينةٍ، كما رُويَ عن نَبيِّ اللهِ عيسى عليهِ السلامُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِزَانَتَانِ، فَانْظُرُوا مَا تَضَعُونَ فِيهِمَا»[1].

وَهوَ رَأْسُ مالِ العُقلاءِ، فالعُقلاءُ لا يُضَيِّعونَ رَأْسَ مالِهم، بل يَحْرِصونَ عليه أَشَدَّ الحِرْصِ.

دَقَّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ ... إِنَّ الحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِ

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا ... فَالذِّكْرُ لِلإِنْسَانِ عُمُرٌ ثَانِ[2]

والوَقْتُ عَظِيمٌ؛ لذا نَجِدُ أنَّ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقسِمُ بالوَقْتِ وبأَجزائِهِ،

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٧٨٠).

(٢) البيتان لأحمد شوقي، انظر: الشوقيات (٣/ ١٥٨).

ولا يُقسِمُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلَّا على أَمْرٍ عَظيمٍ، وبَشيءٍ عَظيمٍ، يَقولُ رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[العصر:١ - ٢]، ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[الفجر:١ - ٤]، ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[الضحى:١ - ٢]، ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[الليل:١ - ٢].

وبَيَّنَ نَبيُّنا -صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- أَهَمِّيَّةَ الوَقْتِ، وهو هذا العُمُرُ، وهذا الرَّقمُ الذي يَعيشُهُ الإنْسانُ، فَقَالَ ﷺ كما جاءَ في سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، مِن حَديثِ أبي بَرْزَةَ الأَسْلَميِّ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ»[(١)].

وعندَ الحاكِمِ في مُستَدرَكِهِ مِن حَديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقولُ نَبيُّنا ﷺ يُخاطِبُ الإنْسانَ، يَقولُ له: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، صِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، غِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[(٢)].

وكذلك قالَ ﷺ كما جاءَ في صَحيحِ البُخاريِّ، مِن حَديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ»[(٣)]، والغَبْنُ: هو الخَسارةُ، فأَكثَرُ النَّاسِ قد خَسِرُوا هاتينِ النِّعْمَتَيْنِ: نِعْمةَ الصِّحَّةَ، ونِعْمةَ الفَراغِ، فما استَفادَ منهما كثيرٌ مِن النَّاسِ في زيادةِ العَمَلِ الصَّالحِ.

الوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيتَ بِحِفْظِهِ وَأَرَاهُ أَسْهَلُ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ[(٤)]

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، رقم (٢٤١٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٦٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم (٦٤١٢).

(٤) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٢٣٧) ونسبه للوزير ابن هبيرة الحنبلي.

يَقولُ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِهِ «الفَوائِدِ»: إضاعةُ الوَقْتِ أَشَدُّ مِن المَوتِ؛ لأنَّ إضاعةَ الوَقْتِ تَقطَعُكَ عن اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ، والمَوتُ يَقْطَعُكَ عن الدُّنيا وأَهْلِهَا[١].

وما أَجمَلَ ما قالَه ذاكَ الصَّحابيُّ الجَليلُ أبو الدَّرْداءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حينَما صَوَّرَ حياةَ الإنْسانِ، فقالَ: يا ابْنَ آدَمَ، إنَّما أنتَ أيَّامٌ، فكلَّما ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ[٢].

إِنَّــا لَنَفْــرَحُ بِالأَيَّــامِ نَقْطَعُهَــا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَــى يُدْنِي مِن الأَجَلِ[٣]

وأَعظَمُ ما تُشغَلُ به هذه الأَوْقاتُ ثَلاثةُ أُمورٍ، ذَكِّرْ بها نَفسَكَ على الدَّوامِ:

الأمْرُ الأَوَّلُ: الإكْثارُ مِن ذِكْرِ اللهِ لوَصيَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب:٤١ - ٤٢].

وَقَد جاءَ عند ابنِ ماجَهْ في سُنَنِهِ، مِن حديثِ عبد اللهِ بنِ بُسْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قال أَعْرابيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[٤].

فلا تُفَوِّتْ على نَفسِكَ هذه الأُجورَ الكَثيرةَ الَّتي لا تَحْتاجُ منكَ جُهدًا كَبيرًا، ولا تُحَرِّكْ بَدَنَكَ، ولا تَخْطُ بخُطاكَ، ما هي إلَّا حَرَكاتٍ تُحَرِّكُها بلِسانِكَ وشَفَتَيْكِ.

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد رقم (٤٢٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٨٠).

(٣) ذكره الأصمعي في قصة له مع أعرابي، انظر: نثر الدر (٦/ ٣٧)، وزهر الآداب (٢/ ٤٥٦).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم (٢٣٢٩)، وكتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، رقم (٣٧٩٣).

وقَد جاءَ في سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، مِن حديثِ جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ»[١]، فَهَذا ذِكْرٌ يَسيرٌ، وأَجْرٌ كَبيرٌ، لا يَأْخُذُ منكَ وَقْتًا.

الأَمْرُ الثَّاني: الإكثارُ مِن الصَّدَقاتِ الجاريةِ، أَيُّ صَدَقةٍ جاريةٍ لِيَكُنْ لك فيها نَصيبٌ وسَهمٌ، فهي التي تَجْرِي عليكَ في قَبرِكَ مِن بعدِ مَوْتِكَ، قَالَ ﷺ وهو يُنَوِّعُ لنا هذه الصَّدَقاتِ، فقَدْ لا تَستَطيعُ أَنْ تَفعَلَ هذه الصَّدَقةَ، لكنْ تَستَطيعُ أَنْ تَفعَلَ تلك.

وقد قَالَ ﷺ: «سَبْعٌ يَجْرِي لِلعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِن بَعْدِ مَوْتِهِ فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»[٢].

الأَمرُ الثَّالثُ: الإكْثارُ مِن العَمَلِ الصَّالِحِ، فأَكثِرْ مِن العَمَلِ الصَّالحِ بِفِعلِكَ وقَولِكَ، فَإِنْ لم تَجِدْ فِعلًا ولا قَولًا تَتَقَرَّبُ به إلى اللهِ، فكُفَّ شَرَّكَ عن النَّاسِ؛ فذلك صَدَقةٌ منكَ على نَفسِكَ، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[الشرح:٧ - ٨].

وقَالَ الإمامُ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَنَفْسُكَ إنْ لم تَشْغَلْها بالحَقِّ وإلَّا شَغَلَتْكَ بالباطِلِ[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٤٦٤).

(٢) أخرجه البزار (٧٢٨٩)، وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (٢/ ٣٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣١٧٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ١٢٥).

ويقولُ الشاعرُ[١]:

تَـزَوَّدْ مِـنَ التَّقْـوَى فَإِنَّـكَ لَا تَـدْرِي
إِذَا جَـنَّ لَيْلُـكَ هَـلْ تَعِـيشُ إِلَى الفَجْـرِ
فَكَـمْ مِـنْ سَـلِيمٍ مَـاتَ مِـنْ غَـيْرِ عِلَّـةٍ
وَكَـمْ مِـنْ سَـقِيمٍ عَـاشَ حِينًـا مِـنَ الـدَّهْرِ
وَكَـمْ مِـنْ عَـرُوسٍ زَيَّنُوهَـا لِزَوْجِهَـا
وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهَا فِي الغَيْبِ وَهيَ لَا تَـدْرِي

فمتى يَتَحَسَّرُ العَبدُ على فَواتِ الوَقْتِ ؟!

نقولُ: تَحصُلُ له هذه الحَسْرَةُ في أَرْبَعةِ مَواضِعَ:

المَوضِعُ الأَوَّلُ: عندَما يُدرِكُ ويُعايِنُ مَلَكَ المَوْتِ، في ساعةِ الاحتِضارِ، يَقولُ: أَجِّلْنِي قَليلًا، لأَستَفيدَ مِمَّا بقيَ مِن الوَقْتِ، وقد بَيَّنَ ذلك رَبُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ (المُؤْمنونَ) قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

المَوضِعُ الثَّاني: في القَبرِ، كما جاءَ ذلك في كِتابِ الزُّهْدِ لابنِ المُبارَكِ، مِن حَديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرٍ قَدْ دُفِنَ حَدِيثًا، فَقَالَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى القَبْرِ: «رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقُرُونَ وَتَنَفَّلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»[٢].

---

(١) ذكر البيتين الأول والثاني الفاكهاني في رياض الأفهام (٣/ ١٧٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣١)، والطبراني في الأوسط (٩٢٠).

فيَتَمَنَّى أَنْ يَخْرُجَ إلى الدُّنيا، ليُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ فقط، أَحبُّ إليه مِن بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ.

المَوضِعُ الثَّالثُ: في يَومِ القيامةِ، حينَما يَرَى العَبدُ ويُبصِرُ ويَسمَعُ ما كان يُوعَدُ في الدُّنيا، وقد صَوَّرَ لنا رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذلك في سُورةِ السَّجدةِ، قالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة:١٢].

المَوضِعُ الرَّابِعُ: حينَما يَدخُلُ الشَّقيُّ البَعيدُ جَهَنَّمَ -عِياذًا باللهِ- يَتَحَسَّرُ على فواتِ الأَوْقاتِ، يَقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[فاطر:٣٧]؛ فيَقولُ رَبِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧] فيَنْدَمونَ، ولا يَنفَعُ النَّدَمُ حينئذٍ.

فحَرِيٌّ بالمُؤْمِنِ العاقلِ الذَّكيِّ الرَّاشِدِ أنْ يَستَفيدَ مِن هذه الأَنْفاسِ، فَكُلُّ نَفَسٍ إذا ذَهَبَ فإنَّه لا يَعودُ.

✖ ⌑ ✖

(٢٥)

النَّهْيُ عن إفْسادِ البيئة

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهَى الشَّارِعُ الحَكيمُ عنها: النَّهْيُ عن إفْسادِ البيئةِ.

ومعلومٌ أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَظَّمَ شَأْنَ هذا الدِّينَ، فالإسْلامُ دينٌ عَظيمٌ، نَظَّمَ للنَّاسِ شُؤونَهُمُ الدِّينيَّةَ والدُّنْيَويَّةَ، وأَسَّسَ للسَّلامِ والوِئامِ بَيْنَ بَني الإنْسانِ وجَميعِ مَن حَوْلَهُ مِن مُكَوِّناتِ هذه البيئةِ، مِنْ أَرْضٍ وسَماءٍ، وما بينَهُما مِن جَمادٍ، ونَباتٍ، وحَيَوانٍ، وماءٍ، وهواءٍ.

وبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ العَبدَ بينَهُ وبين هذه الأَرْضِ وِئامٌ وائتِلافٌ، فقالَ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه:٥٥].

وَقَد كَلَّفَنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعِمارةِ هذه الأرضِ، فقالَ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيْ: جَعَلَكُم عُمَّارًا، تَعْمُرونَها وتَسْتَغِلُّونَها[(١)]، وجَعَلَ الخَيْرِيَّةَ في مَن عَمَرَها ولِمَنْ عَمَرَها، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٨٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٠).

بَيْدَ أنَّ بعضَ البَشَرِ سَعَوْا في الأرضِ مُفْسِدينَ، فكان نَتيجةُ ذلك ما نَراهُ مِن تَلْويثٍ، وإفْسادٍ، وخَرابٍ للبيئةِ.

إنَّكَ إذا قَرَأْتَ في كِتابِ اللهِ وطالَعْتَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَجَدْتَهما يَأْمُرَانِ في العُمومِ بالإصْلاحِ، ورَفْعِ شَأْنِ المُصْلِحينَ، ويُحَذِّرَانِ مِن الفَسادِ، ويُبَيِّنَانِ خَطَرَ المُفْسِدينَ، أَمَا قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ البَقَرةِ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[البقرة:٢٠٥]؟! أَمَا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٧٧]؟!

وتَأَمَّلْ هذا الحَديثَ الواردَ في صَحيحِ مُسلِمٍ، مِن حَديثِ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[(١)].

وهذِه الدُّنْيَا أَجْيالٌ مُتعاقِبَةٌ؛ جيلٌ يَخْلِفُ جيلًا، فأَجْيالُنا السَّابِقةُ خَلَّفَتْ لنا هذه الأَرْضَ، ونحنُ سنُخَلِّفُها لِمَن بَعْدَنا، فكيفَ وَرِثْناها؟ وكيف نُوَرِّثُها لِمَنْ بَعْدَنا؟

وأَعْظَمُ مُكَوِّناتِ هذه البيئةِ: الماءُ والنَّباتُ والحَيوانُ، وقدِ امْتَنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على الخَلْقِ بهم، فقالَ في شَأْنِ الماءِ، مُبَيِّنًا أَنَّهُ سِرُّ الحَياةِ، وأَنَّهُ سِرُّ بَهْجَتِهَا وسُرورِها، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[الحج:٥].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، رقم (٢٧٤٢).

وقد جاءَ عندَ أحمدَ من حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بسَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يَتَوَضَّأُ، فقَالَ له: «مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟!» فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَفِي الوُضُوءِ سَرَفٌ؟ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ له: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ»[(١)].

ولَمْ يَكُنْ سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَوَضَّأُ مِن صُنْبُورٍ يَتدفَّقُ مِنهُ الماءُ عَشْرَ دَقائِقَ أو رُبُعَ ساعةٍ، وإنَّما يَغْرِفُ غَرْفًا يَسيرًا، فنَهاهُ ﷺ عنْ ذلِكَ ولَو كانَ على نَهَرٍ غيرِ مُتَوَقِّفٍ، بل على نَهَرٍ جارٍ، فلا يَحِلُّ السَّرَفُ والإسْرافُ لَو تَوفَّرَ الماءُ وكثُرَ.

وفي حَديثِ عَمرِو بنِ شُعَيْبٍ، عن أبيهِ، عن جَدِّهِ؛ أنَّ أَعْرَابيًّا أَتَى النَّبيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ عَنِ الوُضُوءِ، فَأَرَاهُ ﷺ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «هَذَا الوُضُوءُ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ، أَوْ تَعَدَّى، أَوْ ظَلَمَ»[(٢)]؛ وذلِكَ لأنَّ الزِّيادةَ إهْدارٌ للبيئةِ في جانبِ الماءِ.

وإذَا جِئْتَ إلى الزِّراعةِ، وهي سِرُّ الوُجودِ، وسِرُّ بَهْجَتِهَا، ويُخبِرنَا عَن ذَلِكَ رَبِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأنعام:١٤١].

وجاءَ في صحيحِ مُسلِمٍ، مِن حَديثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء، رقم (٤٢٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا، رقم (١٣٥)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب الاعتداء في الوضوء، رقم (١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه، رقم (٤٢٢).

صَدَقَةٌ»[١]؛ فهَا هُو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُشَجِّعُ على تَشْجيرِ الأرضِ، وزيادةِ هذه البُقْعةِ الخَضْراءِ.

وعندَ أحمدَ من حَديثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ القِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»[٢]؛ يعني: يَرَى القيامةَ وأَهْوالَها ومع ذلِكَ يُندَبُ لِغَرْسِ مَا في يَدِهِ.

وقَد يَقولُ قائِلٌ: يَغْرِسُها لَمَنْ؟ فمَن سيأْتي بعدَ قيامِ القيامةِ؟

والجَوابُ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُريدُ أنْ يُرَبِّيَنا على عِمارةِ الأَرْضِ لا إفسادِها، وعلى أنْ نُسَلِّمَها لَمن بَعْدَنا سالِمةً صالِحةً للعَيشِ؛ ولذا جاءَ في الحَديثِ عندَ الطَّبَرانيِّ في مُعجَمِهِ الكَبيرِ: قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ»[٣]؛ فربَّما يَحتاجُ لها المُسافِرُ، ويَستَظِلُّ بظِلِّها، وربَّما انْتَفَعَتْ بها بَقيَّةُ المَخْلوقاتِ، فجاءَ هَذا فَقَطَعَها؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُصَوِّبُ رَأْسَهُ في النَّارِ.

أمَّا إذا تَحَدَّثْنا عن الحَيَوانِ، وما أكثرَ ما جاءَ في شَرْعِنا مِن المُحافَظةِ عليه؛ فهو ثَرْوةُ الوُجودِ، يَقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، فأَمَرَنا رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنْ نَتعامَلَ مع هذا الخَلْقِ بالحُسْنَى وبالإحْسانِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم (٢٣٢٠)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم (١٥٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٨٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب أبواب النوم، باب في قطع السدر، رقم (٥٢٣٩)، والنسائي في الكبرى (٨٥٥٧)، والطبراني في الأوسط (٢٤٤١) من حديث عبد الله بن حبشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقدْ جاءَ في الصَّحيحَينِ وغَيْرِهما: أنَّ نَبيًّا مِن الأَنْبياءِ نَزَلَ تَحْتَ شَجَرةٍ، يَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، فَأَتَتْ نَمْلَةٌ وَلَدَغَتْهُ، فَغَضِبَ، وَأَمَرَ بِقَرْيةِ النَّمْلِ كُلِّهَا أَنْ تُحْرَقَ، فأَوْحَى اللهُ إليه مُعاتِبًا: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ، أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ!(١).

ولهذا يَنْبَغي أنْ نَتعامَلَ مع هذا الخَلْقِ، على أنَّهُم أُمَمٌ أَمْثالُنَا، لهم تَسْبيحٌ خاصٌّ، ولهم تَمْجيدٌ للخالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كَذَلكَ أيضًا جاءَ: أنَّ امرَأَةً حَبَسَتْ هِرَّةً حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، لَا أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا، وَلَا تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، أَخْبَرَ عنها النَّبيُّ ﷺ أنَّها في النَّارِ(٢).

وذَاتَ يَومٍ مَرَّ الصَّحابةُ مع النَّبيِّ ﷺ فَذهَبَ عنهم لحاجةٍ عندَهُ، فَأَتَوا على حُمَّرَةٍ -طائِرِ الحُمَّرَةِ- وله فِراخٌ صِغارٌ، فأَخَذَ الصَّحابةُ هذه الفِراخَ يَلْعَبونَ بها، فجاءَ هذا الطَّائِرُ يُرَفْرِفُ ويَفْرِشُ جَناحَيْهِ على رَأْسِ النَّبيِّ ﷺ وكَأَنَّه يَشْتكي صَنيعَ هَؤُلاءِ، فجاءَ ﷺ مُخاطِبًا لهُم، مُعتبِرًا مَا حَصَل لها فاجِعةً: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا! رُدُّوا وَلَدَها إليها»(٣).

فهكَذا عَظَّمَ دينُنا شَأْنَ هذه البيئةِ، الَّتي أشبَهُ ما تَكونُ بالأُمِّ؛ فهي تُحيطُ بنا مِن كُلِّ جانِبٍ، تَحْنُو علينا، وتَعطِفُ علينا، وتُعْطينا ممَّا عندَها، فانْقَسَمَ النَّاسُ على قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ بارٌّ بها، وقِسْمٌ عَقَّها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم (٣٠١٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، رقم (٢٢٤١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٣٦٥)، ومسلم: كتاب الآداب، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٥) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكَم هُوَ مُؤْلِمٌ أنْ تَرَى هذا الإنْسانَ العاقِلَ، المُتَعَلِّمَ، المُصلِّيَ، الذَّاكِرَ للهِ، تَراهُ في أَخْلاقِهِ مع هذه الأَرْضِ ومع مُكَوِّناتِها مُخَرِّبًا أو مُسيئًا!

وكم هو مُؤْلِمٌ أنْ تَرَى إنْسانًا عاقِلًا لا يَقومُ مِن مَكانِهِ إلا وقد تَرَكَهُ مُتَّسِخًا، قَذِرًا، لا يَصلُحُ لِمَنْ بَعْدَهُ! كما نَرى مَن يَجْلِسُ اليَوْمَ على الشَّواطِئِ، أو في البَرِّ، أَوْ يَرْمي أَوْساخًا مِن السَّيَّارةِ أو عندَ بيتِهِ!

كيف يَتْرُكُ مِن مُخَلَّفاتٍ؟! وقدْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٥٨].

وَجاء في صَحيحِ مُسلِمٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ مِنْ مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا: الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ»(١).

وفي حَديثٍ آخَرَ يَقولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقِهِمْ فَقَدْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ»(٢)، فبِأَيِّ نَوعٍ مِن صُوَرِ الأَذى لو لَعَنوهُ بسببِ ما خَلَّفَ مِن الأَوْساخِ والأَقْذارِ فإنَّ لَعْنَتَهُمْ واجِبةٌ عليه.

فلْنَتَعامَلْ مع هذه الأرضِ اقتِداءً بنَبيِّنا ﷺ وَفْقَ ما عَلَّمَنا رَبُّنا، ورَبَّانا، وهَدانا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، رقم (٥٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ رقم٣٠٥٠) من حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢٦)

النَّهْيُ عن الاستِهْزاءِ بالدِّينِ وأهلِه

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ الَّتي نَهى الشَّارِعُ الحَكيمُ عنها: نَهْيُهُ عن الاستِهْزاءِ بالدِّينِ وأهلِهِ.

والسُّخْريةُ بالدِّينِ، والاستِهْزاءُ بأَحْكامِهِ، هي عينُها: الاستِهْزاءُ باللهِ ربِّ العالَمِينَ، وهُذا جُرْمٌ عَظيمٌ، وذَنْبٌ كَبيرٌ، وسَيِّئَةٌ تَقودُ صاحِبَها إلى الكُفرِ.

وهِي ذَنْبٌ يَتَجَدَّدُ في الأُمَّةِ، وقَد خَرَجَ النبي ﷺ إلى غَزْوةِ تَبوكَ، وَخَرجَ معهُ المُنافِقونَ، الَّذينَ يُظْهِرونَ الإسْلامَ ويُبْطِنونَ الكُفرَ، والبُغْضَ لِأَهْلِهِ، فإذا ببَعْضِهِم يَقولُ للآخَرِ ساخِرًا ومُستَهْزِئًا: ما رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤُلاءِ -يَقْصِدونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وأَصْحابَهُ- أَرْغَبَ بُطُونًا، وأَكْذَبَ أَلْسُنًا، وأَجْبَنَ عندَ اللِّقاءِ؛ يَتَّهِمونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ! بما هو فيهم.

وإذا بالوَحْيِ يَتَنَزَّلُ على النَّبيِّ ﷺ آياتٍ تُتْلَى إلى يَوْمِ القيامةِ، تُخبِرُ أنَّ صَنيعَهُم هذا أَخْرَجَهُم مِن دائِرةِ الإيمانِ، الذي تَظاهَرُوا بِهِ، إلى دائِرةِ الكُفرِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدَ أنْ جاءَ هَؤُلاءِ المُنافِقونَ يَعْتَذِرونَ لرَسولِ اللهِ ﷺ ويقولونَ: يا رَسُولَ اللهِ، الطَّريقُ بَعيدٌ، فأَرَدْنا أنْ نُقَصِّرَهُ باللَّعِبِ والمُزاحِ، فأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[التوبة:٦٥ - ٦٦][(١)].

وهَذا هُو الإجْرامُ الحَقُّ؛ إجْرامٌ في حَقِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وإجْرامٌ في حَقِّ الدِّينِ، وفي حَقِّ أَهْلِهِ مِن الأَنْبياءِ والمُرسَلينَ، ومَنْ تَبِعَهُمْ مِن أَهلِ الإصْلاحِ والدِّينِ.

وقَد يَقَعُ فيه اليومَ بعضُ أبناءِ المُسلِمينَ، فإذا أرادَ أنْ يَمزَحَ أو يَلْعَبَ سَخِرَ بالدِّينِ، أو بآيةٍ مِن آياتِ الدِّينِ، أو بسُنَّةٍ مِن سُنَنِ سَيِّدِ المُرسَلينَ.

فإنْ تَسَاءَلنَا: لِماذا يَسخَرُ السَّاخِرُ بالدِّينِ؟ ولماذا يَقَعُ البَعضُ في الاستِهْزاءِ بذاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

فَالجَوابُ: أنَّ لذلك ثلاثةَ أَسْبابٍ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: جَهْلُ الفاعِلِينَ بعَظيمِ جُرْمِهم، فالجُرمُ عَظيمٌ، يُخرِجُ مِن الإيمانِ إلى الكُفرِ، ويُخرِجُ مِن الهِدايةِ إلى الضَّلالةِ، قَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[البقرة:١٤ - ١٦].

فَقد اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ، والثَّمَنُ الهِدايةُ، فباعوا هِدايَتَهُم واشْتَرَوْا ضَلالةَ الكافِرينَ، كما فَعَلَ قَومُ صالِحٍ عليه السَّلامُ الذين قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[فصلت:١٧].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ القاضي أبو بَكرِ ابنُ العَرَبيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما نَقَلَ ذلك القُرطُبيُّ في تَفسيرِهِ- مُعَلِّقًا على قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيةِ السَّابِقةِ: لا يَخْلو أنْ يَكونَ ما قالُوهُ مِن ذلك جِدًّا أو هَزْلًا، وهو كَيْفَما كان كُفْرٌ، فإنَّ الهَزْلَ بالكُفْرِ كُفْرٌ[١].

السَّبَبُ الثَّاني: اللَّعِبُ والمُزاحُ، وربَّما رَغْبةً في الدُّنيا، ورَغْبةً في إضْحاكِ كِبارِ القَومِ أو غيرِهِم؛ لِيَحْظَى بفُتاتِ الدُّنيا مِن عندِهِم، ورَسُولُ اللهِ ﷺ يقولُ: «**وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ**»[٢].

قَالَ ابنُ قُدامةَ المَقْدِسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المُغْني): ومَن سَبَّ اللهَ تَعالَى كَفَرَ، سواءً كان مازِحًا أو جادًّا، وكذلك مَنِ اسْتَهْزَأَ باللهِ تَعالَى، أو بآياتِهِ، أو بِرُسُلِهِ، أو كُتُبِهِ[٣].

فتَحْزَنُ حينما تَقْرَأُ بَيْتًا مِن الشِّعرِ لشاعِرٍ يَلمِزُ فيه بالدِّينِ وأهلِهِ، وتَحزَنُ حينما تَقْرَأُ مَقالةً كَتَبَ فيها كاتِبُها ما سيَشْهَدُ عليه يومَ القيامةِ، فيَسخَرُ بحَديثٍ لرَسولِ اللهِ ﷺ، وتَحزَنُ حينَما تَرَى مَغْمورًا نَكِرةً أرادَ أنْ يَشْتَهِرَ على حِسابِ دِينِهِ هو، فيَكتُبُ على مَواقِعِ التَّواصُلِ نُكتةً ساخِرةً، يَسخَرُ فيها برَسُولِ اللهِ ﷺ، وما عَلِمَ أنَّ ذلك مُخرِجٌ له مِن دينِ اللهِ.

السَّبَبُ الثَّالثُ: الحِقدُ والكَراهيةُ لأَهلِ الدِّينِ.

فبَعضُ العُصاةِ الَّذينَ ما استَطاعوُا أنْ يَسيرُوا على مَنهَجِ اللهِ الَّذي أَمَرَ به،

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ١٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) المغني (١٢/ ٢٩٨-٢٩٩).

فتَراهُم يَرْمونَ المُحْسِنينَ الصَّالِحينَ المُتَدَيِّنينَ، الَّذينَ سَلَكوا سَبيلَ اللهِ، وهذا دَيْدَنُ أَقْوامِ الأَنْبياءِ، مُنذُ أنْ خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأَرْضَ، وأَسكَنَ فيها بَني آدَمَ.

فَإذَا قَرأنَا في سُورةِ الأَعْرافِ، سنجِد هذه السُّخْريةَ ظاهِرةً مِن أُولَئِكَ الأَقْوامِ تُجاهَ أَنْبيائِهِمْ، فماذا قال قوم نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٦٠ - ٦١].

وهذا هُودٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ماذا قال له قَومُهُ؟ قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٦٦ - ٦٧].

وهذا لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا نَصَحَ، وأَمَرَ بالعِفَّةِ والطُّهرِ، وحارَبَ شُذوذَ قَوْمِهِ، وانْتِكاسَ فِطَرِهِمْ، ماذا قالوا؟ قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢] يَسُبُّونَهُم بعَفافِهِمْ، وإحسانِهِمْ، وطُهرِهِمْ.

وهذا رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ يَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء:٣٦]، ويَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[الفرقان:٤١].

وهكذا، لو قَرأْت في كِتابِ اللهِ فإنَّك ستَجِدُ هذه الآياتِ تَتكَرَّرُ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزخرف:٧]، وفي سُورةِ (يس): ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[يس:٣٠].

فاحْذَرْ -أَيُّها المُبارَكُ- مِن فَلَتاتِ اللِّسانِ، التي فيها استِهْزاءٌ بالدِّينِ، أو بأَهْلِهِ؛ فإنَّ ذلك ناقلٌ لصاحِبِ تِلكَ الكَلِمةِ مِن دائِرةِ الإيمانِ إلى دائِرةِ الكُفرِ.

ولا يُكتَفى مِن التَّحْذيرِ مِن أنْ يَتكَلَّمَ الإنْسانُ ساخِرًا أو مُستَهْزِئًا بالدِّينِ، بل يُضافُ إلى ذلك: ألَّا تُجالِسَ هَؤُلاءِ السَّاخِرينَ، فإنْ أَبَيْتَ إلَّا أنْ تُجالِسَهُم فأَنْكِرْ عليهِمْ، وامْنَعْهُم مِن ذلك، وإلَّا وُجودُكَ معهُمْ راضيًا يُدخِلُكَ في نفسِ الدَّائِرةِ، قال ذلك رَبِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ النِّساءِ، إذا أَبَيْتُمْ إلَّا الجُلوسَ والسُّكوتَ والرِّضا، قال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]. فإذا أَبَيْتُمْ إلَّا الجُلوسَ والسُّكوتَ والرِّضا، فإنَّكُم إذًا مِثْلُهُم.

فإنْ كُنتَ قادِرًا على الإنْكارِ فأَنْكِرْ، فإنِ امْتَنَعُوا وإلَّا قُمْ، ولا تَجْلِسْ، ولا تُوالِ أَصْحابَ هذه المَجالِسِ؛ لأنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ ذلك؛ فَقَدْ قَال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[المائدة:٥٨].

فلا تُوالِهِمْ، ولا تَقْعُدْ معهم، حتَّى يَخوضُوا في حَديثٍ غيرِهِ؛ فَيَجِبُ أنْ تَعْتَزَ بهذا الدِّينِ قَوْلًا وعَمَلًا.

* * *

(٢٧)

النَّهْيُ عن إفْسادِ ذاتِ البَينِ

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ الَّتي نَهَى الشَّارعُ الحَكيمُ عنها: نَهْيُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الإفْسادِ بَيْنَ النَّاسِ، أي: النَّهْيُ عن إفْسادِ ذاتِ البَينِ.

وإفْسادُ ذاتِ البَينِ جَريمةٌ في حَقِّ المُجتَمَعِ، فَهوَ مِعْوَلٌ مِن أَخْطَرِ مَعاوِلِ الهَدْمِ في جِدارِ المُجتَمَعِ، وَهوَ داءٌ عُضالٌ يَفتِكُ بجَسَدِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ، وآفةٌ مِن أَخْطَرِ الآفاتِ التي تُهَدِّدُ العَلاقاتِ الأُسَريَّةَ وغَيْرَهَا.

وَقَد أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ، ورَتَّبَ على ذلك الأَجْرَ العَظِيمَ، وحَذَّرَ أَشَدَّ التَّحْذيرِ مِنَ الإفْسادِ بَيْنَ النَّاسِ، ورَتَّبَ على ذلك العَذابَ الوَخيمَ، قال الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾[النساء:١٢٨].

وعندَ البُخاريِّ في كِتابِهِ «الأَدَبِ المُفرَدِ» مِن حديثِ أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَال النَّبيُّ ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِدَرَجَةٍ أَفْضَلَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا:

بَلَى، قَالَ: «صَلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ» ثم قال: «وَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ»[١].

أَتَدْرُونَ مَاذَا تَحْلِقُ هذه الآفةُ، وهذه المَعْصيةُ، وهذا المِعْوَلُ الهَدَّامُ، أَتَدْرُونَ ماذا يَحْلِقُ؟!

قَد أَخْبَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ عن ذلك؛ فيما جاءَ مِن حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ البُخاريِّ في كِتابِهِ «الأَدَبِ المُفرَدِ» قال: «وَإِيَّاكُمْ وَالبُغْضَةَ؛ فَإِنَّهَا هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ لَكُمْ: تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»[٢].

فهذه المَعْصيةُ تَحْلِقُ الدِّينَ، والسَّبَبُ أنَّ صاحِبَها قَدِ انْطَوَى على حِقْدٍ دَفينٍ، وبُغْضٍ كَبيرٍ، فصاحِبُها لا عَمَلَ له إلَّا قالةَ السُّوءِ، والمَشْيَ بالنَّميمةِ، وَهُو لا يَهْدَأُ ولا يَرْتاحُ إلَّا إذا رَأَى كُلَّ اجتِماعٍ قد تَفَرَّقَ، وكلَّ مَحبَّةٍ صارَتْ عَداوةً، يَمْشِي بَيْنَ الرَّجُلِ وزَوجَتِهِ يُفسِدُ عَلاقَتَهُما، ويَأْتي إلى الوَالِدِ ووَلَدِهِ فيُفسِدُ عَلاقَتَهُما، وَيَدخُلُ بَيْنَ الأخِ وأخيهِ فيُفسِدُ عَلاقَتَهُما.

هكذا قال ﷺ عن هذا الصِّنْفِ مِن النَّاسِ، وسَمَّاهُ شِرارَ الخَلْقِ، فَقَد جاءَ في مُسنَدِ أَحْمَدَ، مِن حَديثِ أسماءَ بنتِ يَزيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟» قَالوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ تَعَالَى» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ: المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، البَاغُونَ لِلبُرَآءِ العَنَتَ»[٣]؛ هذه هي صِفَتُهُمْ، مُفسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ مَشَّاؤُونَ بالنَّميمةِ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٩١)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، رقم (٤٩١٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٦٠) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب من لا يُؤْبَه له، رقم (٤١١٩).

ويَبْغُونَ للبُرَآءِ العَنَتَ، أي: الجُهدَ والكَلَفةَ.

فكَمْ مِن رَجُلٍ دَخَلَ في أُسرةٍ قد اجْتَمَعَتْ وتَحابَّتْ وتَصافَتْ فَأَفْسَدها! وكَم من رَجُلٍ تَزَوَّجَ بامرأةٍ فقَلَبَتْ عليه عِيشَتَهُ حينَما حالَتْ بَيْنَ قَلْبِهِ وقَلْبِ والِدَيْهِ وإخوانِهِ وأَخواتِهِ! وكَم مِن شَخصٍ دَخَلَ في دائِرةٍ أو مُؤَسَّسةٍ أو عَمَلٍ، فأَفسَدَ ما بَيْنَ المُوَظَّفينَ مِن حُبٍّ وإخاءٍ، وما بَيْنَ رَئيسٍ ومَرْؤُوسٍ!

هَؤُلاءِ المَرْضى الَّذينَ لا يَهْنَأُ لهم عَيْشٌ إلَّا إذَا أَحدَثوا شَرْخًا في جِدارٍ المُجتَمَعِ، وهَشَمُوا هذه العَلاقاتِ بَيْنَ النَّاسِ؛ لذا قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يُفسِدُ النَّمَّامُ في ساعةٍ ما لا يُفسِدُهُ السَّاحِرُ في سَنَةٍ[1].

تَـنَحَّ عَـنِ النَّمِيمَـةِ وَاجْتَنِبْهَـا   فَـإِنَّ الـنَّمَّ يُحْـبِطُ كُـلَّ أَجْـرِ
يُثِـيرُ أَخُـو النَّمِيمَـةِ كُـلَّ شَرٍّ   وَيَكْشِـفُ لِلخَلَائِـقِ كُـلَّ سِرِّ[2]

ومِن أَخْطَرِ العَلاقاتِ الَّتي تُهَدَّدُ مِن قِبَلِ هَؤُلاءِ المَرْضى النَّمامينَ المُفسِدِينَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ: العَلاقاتُ الزَّوجيَّةُ، فكم مِن عَلاقةٍ كانت تَسيرُ في رَكبٍ وفي قاربٍ هَانِئٍ، فإذا بأَمْوَاجِ الخُصوماتِ والاختِلافاتِ تَتَلاطَمُ، فتُؤَثِّرُ في سَيْرِه، ورُبَّما أَعاقَتْهُ عن المَسيرِ، ورُبَّما قَطَعَتْ مَسيرَهُ بالفِراقِ والطَّلاقِ، والسَّبَبُ قالةُ السُّوءِ، حينَما أَصْغَى أَحَدُ الزَّوْجَينِ أو كِلاهُما لحَديثِ هَؤُلاءِ أو أُولَئِكَ.

وفي صَحيحِ مُسلِمٍ أَخْبَرَنا نَبِيُّنا ﷺ بحديثٍ عَظيمٍ، مِن حَديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ**

---

(١) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء (ص:١٧٩)، وذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس (ص:٨٧) عن يحيى بن أبي كثير قوله.

(٢) البيتان في موارد الظمآن من دروس الزمان للسلمان (٥/ ١٠).

مَنْزِلَةً، أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمُ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ»، وفي رِوايةٍ: «فَيَلْتَزِمُهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ!»[(١)].

فهَؤُلاءِ الحَقَدةُ النَّمّامونَ إنَّما هم مُوَظَّفونَ عِنْدَ إبْلِيسَ، والسَّبَبُ كما قالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إيقاعُ العَدَاوةِ والبَغْضاءِ هي مُنْتَهَى قَصْدِ الشَّيْطانِ[(٢)].

وقد قال رَبِّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[الإسراء:٥٣].

وفي صَحيحِ مُسلِمٍ، مِن حَديثِ جابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَقولُ نَبيُّنا ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[(٣)]؛ فهذه ما زالَتْ باقيةً، فَهوَ يُحَرِّشُ بَيْنَ الأخِ وأخيهِ، ويُحَرِّشُ بين الوالِدِ وولَدِهِ، ورُبَّما كانَ هذا المُحَرِّشُ أَحَدَ الأَبناءِ، فيُحَرِّشُ الوالِدَ على بَقِيَّةِ إخوانِهِ، والواقعُ يَشهَدُ بذلك.

ولكنْ كيف تَتَصَرَّفُ إذا جاءَكَ النَّمّامونَ، هَؤُلاءِ الَّذينَ يَسْعَوْنَ بالوِشايةِ، يَنْقُلونَ لك ما قال فُلانٌ، وما أَحْدَثَ فُلانٌ؟!

وها هو يُوسُفُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو نبيٌّ مِن أَنْبياءِ اللهِ، يَتَعَرَّضُ هو وإخْوَتُهُ لِنَزَغاتِ الشَّيْطانِ، فيُفَرِّقُ بَيْنَهُما، فيَقولُ في نهايةِ المَطافِ مُحيلًا مَا حصَل إلى نَزَغاتِ الشَّيطانِ: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾[يوسف:١٠٠].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان، رقم (٢٨١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٤٦).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان، رقم (٢٨١٢).

والواجِبُ على كُلِّ إنْسانٍ يَرِدُ عليه الوَاشونَ النَّمَّامونَ: أَلَّا يَستَمِعَ إليهم، ولا يُصغِيَ إليهم، والسَّبَبُ أنَّ هذه القُلوبَ تَتَأَثَّرُ بما تَسمَعُ.

ولا تَقُلْ: أنا لا أَتَأَثَّرُ، فَإِنَّك لا بُدَّ أنْ تَتَأَثَّرَ، فالواجبُ أَلَّا تَستَمِعْ، وقَد عابَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الَّذِينَ يَسْتَمِعونَ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧] أي: يُريدونَ أنْ يَطْرَحوا الفِتْنَةَ بينكُمْ، والمُصيبةُ: وفيكم سَمَّاعونَ لهم.

وقد جاءَ عندَ أحمدَ في مُسنَدِهِ مِن حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»(١).

فمَهْمَا كان لِمَن فَتَحَ أُذُنَيْهِ لكَلامِ الآخَرينَ سيَبْقَى في قَلْبِهِ شَيْءٌ، فلا تَستَمِعْ، ولا تَقْبَلْ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَمَرَنا بذلكَ، حَيثُ قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم:١٠ - ١٢].

فلا تُطِعْ، ولو حَلَفَ وأَقْسَمَ لك، وقالَ: أنا لك ناصِحٌ، وأنا لك مُحِبٌّ، ودَبَّجَ في كَلامِهِ وزَخْرَفَ، فلا تَسْتَمِعْ؛ فإنَّ القائِلَ يَقولُ:

وَمَنْ يُطِعِ الوَاشِينَ لَا يَتْرُكُوا لَهُ حَبِيبًا وَلَا صَدِيقًا مُقَرَّبَا(٢)

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في رفع الحديث من المجلس، رقم (٤٨٦٠)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل أزواج النبي ﷺ، رقم (٣٨٩٦).

(٢) البيت للأعشى الكبير، انظر: ديوانه (ص:١١٧).

(٢٨)

النَّهيُ عنِ الخِيانةِ

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ التي نَهى الشَّارعُ الحَكيمُ عنها: النَّهيُ عن الخِيانةِ.

والخِيانةُ: ضِدُّ الأَمانةِ، وهي التَّفريطُ عَمْدًا فيما يُؤْتَمَنُ الإنْسانُ عليه في أَمْرِ دِينِهِ ودُنْياهُ، مِن الأَشْياءِ المادِّيَّةِ والمَعْنَويَّةِ.

والخِيانةُ: خُلُقٌ ذَميمٌ، وطَبعٌ دَنيءٌ، وخَصْلةٌ خَسيسةٌ، لا يَتخَلَّقُ بها إلَّا الأَسافِلُ، ويَتَرَفَّعُ عنها ويَتَخَلَّقُ بضِدِّها، وهِي الأمانةُ، أَهْلُ المُروءاتِ والمَكرُماتِ، وأَهْلُ الدِّيانةِ.

وَقَد حَذَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مِن الخِيانةِ؛ فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:٢٧]، وبَيَّنَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عَدَمَ مَحبَّتِهِ للخائِنِينَ، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[النساء:١٠٧]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[الحج:٣٨]، وبَيَّنَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عَدَمَ هِدايَتِهِ للخائِنِينَ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[يوسف:٥٢].

فالخائِنُ الذي خانَ دينَهُ، ففَرَّطَ في دِينِهِ، أَوْ الخائِنُ الذي خانَ أَمانَتَهُ، فأَكَلَ

مالًا حَرَامًا، وكَسَبَ كَسْبًا حَرَامًا، أَوْ خانَ عِرْضًا ائْتُمِنَ عليه، تَعَدَّى على أَهْلِ جارِهِ، أو على قَرابَتِهِ، أو على امْرَأَةِ أخيه، أَوْ ذاك الذي جَلَسَ على كُرْسِيٍّ كُتِبَ فَوْقَهُ: أَمينُ الصُّندوقِ، فإذا به يَخونُ هذا الصُّندوقَ، سواءٌ كَبُرَ هذا الصُّندوقِ أَوْ صَغُرَ.

وإذا نَظَرْتَ إلى سِيرةِ نَبيِّنا ﷺ وإلى سُنَّتِهِ، وإلى أَحادِيثِهِ الَّتي بَيْنَ أَيْدِينا، وَجَدْتَ كَمًّا كَبيرًا جِدًّا مِن الأحاديثِ التي تُبَيِّنُ قُبْحَ هذه المَعْصيةِ، وقُبْحَ هذه الكَبيرةِ.

وأَذكرُ هُنا بعضًا مِن هذه الأحاديثِ، ليَتدَبَّرها مَن وَقَعَ في هذه المَعْصيةِ، ولْيَفْتَحْ لها قَلْبَهُ؛ لَعَلَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنْ يُنْقِذَهُ ممَّا هو فيه.

الحديثُ الأوَّلُ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ كما جاءَ في صَحيحِ مُسلِمٍ، مِن حَديثِ ابنِ عُمَرَ: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابنِ فُلَانٍ**»[1].

فهُنا يُبَيِّنُ ﷺ أنَّ الخائنَ لا بُدَّ أنْ يَظْهَرَ أَمْرُهُ، في الدُّنيا أَوْ في الآخِرةِ، أَوْ في كِلاهُما، حتَّى وإنْ أَخْفَى خِيانَتَهُ، وعَمِلَ في السِّرِّ والخَفاءِ، فَهُناكَ في يومِ القيامةِ فضيحةٌ على رُؤُوسِ الخَلائِقِ، كلِّ الخَلائِقِ، ليس على جِيلِهِ فقط، بل كلِّ الخَلائِقِ.

والمُصيبةُ: أنْ يُذْكَرَ اسْمُه واسمُ والِدِهِ؛ هذه فَضيحةُ فلانٍ ابن فلان، هذه غَدْرَةُ فُلانِ ابنِ فُلانٍ، فأيُّ عارٍ جَلَبَ على والِدِهِ هذا الخائنُ؟!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، رقم (٦١٧٧)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب تحريم الغدر، رقم (١٧٣٥) واللفظ له.

الحَديثُ الثَّاني: جاءَ في مُسنَدِ أحمدَ، مِن حَديثِ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ والكُفْرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ، وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ والكَذِبُ جَمِيعًا، وَلَا تَجْتَمِعُ الخِيانةُ والأَمَانَةُ جَمِيعًا**»[(١)] .

وقَد بَيَّنَ فِيه رَسولُ اللهِ ﷺ أنَّ الخِيانةَ والأَمانةَ لا تَجتَمِعُ في قَلبِ امْرِئٍ مُسلِمٍ، فشَخْصيَّةُ المُسلِمِ أو المُؤْمِنِ لا يُمكِنُ أنْ يَجتَمِعَ فيها الضِّدَّانِ، فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ أمينًا وخائنًا في نفسِ الوَقْتِ.

الحَديثُ الثَّالثُ: جاءَ في سُنَنِ ابنِ ماجَهْ، مِن حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ الرَّسولَ ﷺ كَثيرًا ما يَقولُ هذا الدُّعاءَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُوعِ؛ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ البِطَانَةِ**»[(٢)] .

وقَد بَيَّنَ فيه خُطورةَ هذه المَعْصيةِ؛ وقالَ هَذا وهُوَ الصَّادقُ الأَمينُ، الَّذي ائْتَمَنَهُ اللهُ على شَرْعِهِ، وعلى دِينِهِ، وعلى تَبْليغِ رِسالَتِهِ.

فمَنْ مِنَّا بعدَ ذلكَ يَتَعَوَّذُ باللهِ مِن الخِيانةِ؟! ومَن مِنَّا يَفْعَلُ ذلك؟! أَلِهَذِهِ الدَّرجةِ بَلَغَتْ بنا الثِّقةُ أنْ لا نَدْعُوَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ألَّا نُصابَ بهذه المُصيبةِ والكَبيرةِ؟!

الحَديثُ الرَّابعُ: جاءَ في حَديثِ أَبي بَكْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ، مِنْ**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٤٧)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب التعوذ من الجوع، رقم (٥٤٦٨)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب التعوذ من الجوع، رقم (٣٣٥٤).

قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَالخِيَانَةِ، والكَذِبِ»[١].

وقَد بَيَّنَ لنا فيهِ رَسولُ اللهِ ﷺ أنَّ عُقوبةَ الخائِنِ لا بُدَّ أنْ تُصيبَهُ في الدُّنيا قبلَ الآخِرةِ.

الحَديثُ الخامسُ: عندَ البُخاريِّ في كِتابِهِ الأَدَبِ المُفرَدِ، مِن حَديثِ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَمَنْ اسْتَشَارَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ فَقَدْ خَانَهُ**»[٢].

وقَد بَيَّنَ فيه رَسُولُ اللهِ ﷺ التَّحذيرَ الشَّديدَ مِن المُستَشارِ الخائِنِ! فاحْذَرْ أنْ تَسْتَشيرَ خائِنًا، فإنَّه لا يُشيرُ عليك إلَّا بالرَّدَى.

وَإن استَشَارَكَ أحدٌ في امْرَأَةٍ يُريدُ الزَّواجَ بها، أَوْ في رَجُلٍ تَقَدَّمَ إلى أَهْلِهِ، فقُلْ فيه رُشْدًا، وإلَّا تَكونُ قد خُنْتَهُ، والخِيانةُ مَعْصيةٌ، وهذه مِن كَبائِرِ الذُّنوبِ.

الحديثُ السَّادسُ: عندَ البَيْهَقيِّ في شُعَبِ الإيمانِ، مِن حَديثِ سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «**الْمُسْلِمُ يُطْبَعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ غَيْرَ الخِيَانَةِ وَالكَذِبِ**»[٣]، فلا تَجِدُ المُسلِمَ خائِنًا، ولا تَجِدُهُ كَذَّابًا أَبَدًا.

وقَد بَيَّنَ فيه ﷺ أنَّ الطِّباعَ الرَّديئةَ، والخِصالَ الذَّميمةَ، يُمْكِنُ أنْ يُصابَ بها

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، رقم (٤٩٠٢)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، رقم (٢٥١١)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب البغي، رقم (٤٢١١). وفي مجمع الزوائد (٨/ ١٥٢): «رواه أبو داود باختصار، ورواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن موسى بن أبي عثمان الأنطاكي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢١) والبخاري في الأدب المفرد (٢٥٩).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٤٦٩)، وقال: «وروي مرفوعا، ورفعه ضعيف».

المُسلِمُ إلَّا خَصْلَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، فإنَّه لا يُمكِنُ أنْ يُطبَعَ عليهما المُسلِمُ، فعُقوبَتُهُما مُعَجَّلةٌ.

ولا تَخُنْ في مِهْنَتِكَ، فربَّما كانَتْ مِهْنَتُكَ تَقْتَضي أنْ تَكْتُمَ أَخْبارَها وأَسْرارَها، كأنْ تَعمَلَ في سِلكِ القَضاءِ قاضيًا، أَوْ مُحاميًا، فلا تُفْشِ أَسْرارَ القَضايا التِي وُكِلَتْ إليكَ.

وقد تَكونُ طَبيبًا أَو مُمَرِّضًا، فلا تُفْشِ أَسْرارَ مَرْضَاكَ، حتَّى وإنْ كُنْتَ مُغَسِّلًا للمَوْتَى، ومُكَفِّنًا لهم، لا تُفْشِ أَسْرارَهُمْ، قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً**»[(١)]، أي: لا يُخْبِرُ ما يَرَى مِن السُّوءِ، فلا يُفْشِ هذا.

والذي يُفْشي أَسْرارَ أُمَّتِهِ ووَطَنِهِ ممَّا يَعودُ عليها بالهلاكِ والدَّمارِ فهذا خائنٌ، وخيانتُهُ عُظْمَى، فليَحْذَرِ العَبدُ أنْ يَقَعَ في هذه الكَبيرةِ.

الحَديثُ السابعُ: في سُنَنِ التِّرْمِذيِّ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[(٢)].

وهُنا يُرشِدُ نَبيُّنا ﷺ إلى قَضِيَّةٍ تُبَيِّنُ قُبْحَ هذه المَعْصيةِ، وبَيَّنَ أَنَّكَ إذا تَعَرَّضْتَ للخيانةِ فلا تُقابِلْ مَن خانَكَ بالخِيانةِ أَبَدًا، وهذا دَليلٌ على خُطورَتِها.

الحديثُ الثَّامنُ: قال ﷺ: «**لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلَا خَائِنَةٍ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٥٣)، والبيهقي (٣/ ٣٩٥) من حديث أبي رافع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (٣٥٣٥)، والترمذي: كتاب البيوع، رقم (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأقضية، باب من ترد شهادته، رقم (٣٦٠٠)، وابن ماجه: كتاب الأحكام، باب من لا تجوز شهادته، رقم(٢٣٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فالخائِنُ لا يُسْتَشْهَدُ، ولا تُقبَلُ شَهادَتُه، وبالتَّالي هذا لا يَرْقَى أنْ يَكونَ مُستَشارًا، فلَا تَستَشِرْهُ في أَمْرِ دِينِكَ ودُنْياكَ.

الحديثُ التَّاسعُ: جاءَ في صحيحِ مُسلِمٍ، مِن حَديثِ عِياضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ**» وذَكَرَ مِن الخمسةِ: «**الخَائِنِ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ**»(١).

فالخائِنُ مُتَرَبِّصٌ، يَنْتَظِرُ فرصةً سانِحةً تَتَهَيَّأُ له حتَّى يَخونُ فيها، ولو كانت هذه الخِيانةُ الْتِفاتةً بعَيْنِهِ على امْرَأَةِ جارِهِ، أو فرصةً لخيانةِ ما تَحْتَ يَدِهِ، مِن وِلايَةٍ، فِي مالٍ، أَوْ عِرْضٍ، أَوْ دِينٍ.

وفِي هَذا الحديثِ لوَحْده الكِفايةُ لَمَنْ أرادَ الكِفايةَ، وفيه الخَلاصُ لَمَن أرادَ الخَلاصَ.

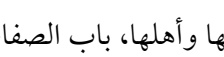

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم (٢٨٦٥).

(٢٩)

النَّهيُ عنِ الشَّمَاتةِ

عِبادَ اللهِ!

ومِن المَناهي الشَّرعيَّةِ الَّتي نَهَى الشَّارعُ الحَكيمُ عنها: الشَّماتةُ بالآخَرينَ.

والشَّماتةُ بالآخَرينَ: خُلُقٌ ذَميمٌ، وخَصْلةٌ دَنيَّةٌ، لا تَكونُ إلَّا مِن أَصْحابِ القُلوبِ المَريضةِ، الَّذينَ سَفُلَتْ نُفوسُهُم وتَدَنَّتْ، وتَخَلَّقَتْ بهذه الأَخْلاقِ الرَّديئةِ.

والشَّماتةُ هي إظْهارُ الفَرَحِ والسُّرورِ بالبَلاءِ والضُّرِّ الَّذي يُصيبُ الآخَرينَ، فإذا رَأَى في غيرِهِ بَلاءً أَوْ فِتْنةً، أَوْ رَأَى في غيرِهِ ذَنْبًا عَيَّرَهُ، وشَمِتَ به، وهذا لا يَكونُ إلَّا مِن الأَعْداءِ والخُصومِ، فالمُحِبُّ لا يَشمَتُ أَبَدًا، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُبَيِّنًا ما قالَ هَارُونُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأَخيهِ نَبيِّ اللهِ مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف:١٥٠] فالعَدُوُّ هو الذي يَشمَتُ.

والشَّماتةُ يَدخُلُ فيها التَّعْييرُ بعَيبٍ خَلْقيٍّ أَوْ خُلُقيٍّ في الإنْسانِ، أو التَّعْييرُ بالذَّنْبِ يَرتَكِبُه الإنْسانُ، أَوْ السُّخْريةُ، كُلُّ ذلك مِن الشَّماتةِ، وقد نَهَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ ذلك كُلِّه، فقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ

﴿بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات:١١].

ومِن أكثرِ النَّاسِ شَماتةً الحاسِدُ؛ لأنَّه يَغتَمُّ ويَتَضايَقُ ويَتكَدَّرُ إذا رآكَ في نِعْمةٍ، وإذا رَأَى نِعْمةً عليكَ تَتوالَى، أَوْ على وَلَدِكَ، أَوْ على قَريبِكَ، أَصابَهُ الغَمُّ، وأَصابَهُ الكَدَرُ، وأَصابَهُ الضِّيقُ، فإذا رَأَى عليكَ وفيكَ بَلِيَّةً فَرِحَ بها وشَمِتَ، وهذا الذي ذَكَرَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قولِه: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[آل عمران:١٢٠].

وكان من هَدْيِهِ ﷺ -وهو الذي يَنْبَغي أنْ نكونَ عليه- أنَّهُ يَتعَوَّذُ باللهِ مِن الشَّماتةِ، ومِن الأَسْبابِ المُوجِبةِ لها؛ فقَدْ جاءَ في صحيحِ مُسلِمٍ مِن حَديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يَتَعَوَّذُ مِن سُوءِ القَضاءِ، وَمِنْ دَرَكِ الشَّقَاءِ، وَمِنْ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ، وَمِنْ جَهْدِ البَلَاءِ»[(١)].

بَلْ جاءَ عندَ الحاكِمِ في مُستَدْرَكِهِ مِن حَديثِ ابنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَدْعُو رَبَّهُ دائِمًا يَقولُ: «**اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالإِسْلامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلامِ رَاقِدًا، وَلَا تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا حَاسِدًا**»[(٢)].

فهل دَعَوْتَ بهذا الدُّعاءِ؟ هل قُلتَ في صَباحِكَ ومَسائِكَ: يا رَبِّ لا تَجْعَلْنِي شَماتةً للحَاسِدِينَ، يا رَبِّ لا تُشْمِتْ بِي حَاسِدًا؛ أي: اصْرِفْ عَنِّي كُلَّ ما يَكونُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من جهد البلاء، رقم (٦٣٤٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٧).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٢٤).

سَبَبًا لشَماتةِ الشَّامِتِينَ؟

قالَ عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يُوَضِّحُ نَفْسيَّةَ الشَّامِتِ الحاسِدِ: إذا رَأَى الحَاسِدُ نِعْمَةً بُهِتَ، وإذا رَأَى عَثْرَةً شَمِتَ[١].

وتَكْمُنُ خُطورَةُ الشَّماتةِ في أَمْرَيْنِ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أَنَّه إِنْ عَيَّرَ وَشَمِتَ بِأَخِيهِ الَّذي ارْتَكَبَ ذَنْبًا فَإِنَّ شَماتَتَهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَنْبِ أَخيهِ.

فلو قالَ إنْسانٌ شامِتًا: فَلانٌ السَّارِقُ، أو فُلانٌ الزَّاني، أو فُلانٌ المُرابي، يَشمَتُ بسَرِقةِ فُلانٍ، وزِنا فُلانٍ، ومُراباةِ فُلانٍ؛ فإنَّ شَماتَتَهُ أَعْظَمُ مِن ذَنْبِهِمْ.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِهِ «مَدارِجِ السَّالِكِينَ»: إنَّ تَعْييرَكَ لأخيكَ بذَنْبِهِ أَعْظَمُ إثْمًا مِن ذَنْبِهِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَعْصِيَتِهِ؛ لِما فيه مِن صَوْلَةِ الطَّاعةِ، وتَزْكيةِ النَّفْسِ، وشُكْرِها، ومُنادَاتِها بالبَراءةِ مِن الذَّنبِ، وأَنَّ أخاكَ باءَ به[٢].

فهذا فيه تَزْكيةٌ لِنَفْسِكَ، فحينَما تُعَيِّرُ وتَشمَتُ من أَخيكَ بذَنْبِهِ؛ لذا جاءَ في سُنن التِّرْمِذيِّ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ صَعِدَ المِنْبَرَ، وَنَادَى بصَوْتٍ رَفِيعٍ، قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، ولا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوَرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ**»[٣].

---

(١) ذكره ابن حبان في روضة العقلاء (ص:١٣٧) بلا نسبة.

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٩٥).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، رقم (٢٠٣٢)، وابن حبان (٥٧٦٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فمَنْ عَيَّرَ أَخاهُ بذَنْبٍ فقَدِ ارْتَكَبَ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِن ذَنْبِ أَخيهِ.

الأَمْرُ الثَّاني: أَنَّ مَن شَمِتَ بغَيرِهِ عادَتِ الشَّماتةُ عليه، وأَصابَهُ ما أَصابَ مَنْ شَمِتَ به ولو بَعْدَ حِينٍ، فمَنْ شَمِتَ بإِنْسانٍ بعَيْبٍ في خُلُقِهِ أَصابَهُ ذلك العَيْبُ، أَوْ عَيْبٍ في أَخْلاقِهِ أَصابَهُ ذَلِكَ العَيبْ، ولَا بُدَّ.

وقد قالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ إِلَى اللهِ مِنْهُ ابْتَلَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بذنبه»[(١)]؛ فإِنَّه يُبْتَلَى ولا بُدَّ.

وقال ابنُ سِيرِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عَيَّرْتُ رَجُلًا بالإِفْلاسِ، فقُلتُ: يا مُفْلِسُ، فأَفْلَسْتُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً[(٢)].

فمَنْ شَمِتَ بالآخَرينَ عادَتِ عليه الشَّماتةُ ولا بُدَّ.

وقد جاءَ في بعضِ الآثارِ، وفي رَفْعِها إلى النَّبيِّ ﷺ ضَعْفٌ، قال: «لا تُظْهِرِ الشَّماتةَ لأَخيكَ فيَرْحَمُهُ اللهُ ويَبْتَلِيكَ»[(٣)].

فَقُــلْ لِلشَّــامِتِينَ بِنَــا أَفِيقُــوا سَــيَلْقَى الشَّــامِتُونَ كَــمَا لَقِينَــا[(٤)]

وهَذه ضَمانةٌ ضَمِنَها النَّبيُّ ﷺ لَمن كَفَّ لِسانَهُ عن شَماتةِ الآخَرينَ: أَلَّا يُصيبَهُ ما أَصابَهُ مِن بَلاءٍ، فَقد أَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ كما جاءَ في سُنَنِ التِّرْمِذيِّ، مِن حديثِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**مَنْ رَأَى صَاحِبَ بَلَاءٍ فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا**

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على الزهد (١٦١٠).

(٢) ذكره ابن الجوزي في صيد الخاطر (ص:٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٦)، من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) البيت للفرزدق، انظر: ديوان الحماسة (ص:٢٢٧).

ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلَاءُ، كَائِنًا مَا كَانَ، مَا عَاشَ»[1].

فإذا رَأَيْتَ مُبْتَلًى، أَو رَأَيْتَ المُصابَ، أَو رَأَيْتَ مَن أَصابَتْهُ المِحْنَةُ، فرَدِّدْ هذا الدُّعاءَ تَكُنْ لك ضَمانةً مِن المُصيبةِ.

وكذلك إذا رَأَيْتَ إنْسانًا مَريضًا، أو إنْسانًا مُجْرِمًا، أو إنْسانًا له وَلَدٌ مُنْحَرِفٌ أَوْ بِنْتٌ فيها وفيها فقُلْ هذا الدُّعاءَ، ويَحْفَظْكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِن أنْ يُصيبِكَ هذا البلاء، فأينَ الآخِذونَ بهذا الحديثِ؟!

✖ ⌑ ✖

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا رأى مبتلى، رقم (٣٤٣١).

(٣٠)

الأَمْنُ مِن مَكْرِ اللهِ

عِبادَ اللهِ!

والأَمْنُ مِن مَكْرِ اللهِ: هو زَوالُ الخَوفِ مِنَ المُؤَاخَذةِ والمُعاقَبةِ عندَ ارْتِكابِ المَعاصي والذُّنوبِ.

وهو أنْ يَفْعَلَ العاصي مَعْصيتَهُ، ويَرتَكِبَ المُذنِبُ ذَنْبَهُ، ولا يُبالِي، ولا يَخافُ مِن المُؤَاخَذةِ والعُقوبةِ، هذا آمِنٌ مِن مَكْرِ اللهِ.

قال ابنُ حَجَرٍ الهَيْتَميُّ في كتابِهِ «الزَّواجِرِ»: هو الاسترْسالُ في المَعاصي مع الاتِّكالِ على الرَّحمةِ[١].

ومَكْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنْ يُعاقِبَهُ على الذَّنْبِ ولكنْ مِن حيثُ لا يَشْعُرُ[٢].

وكما قال القُرطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرِهِ: هو استِدْراجُه بالنِّعمةِ والصِّحَّةِ[٣].

فيُذنِبُ ويُعطَى مِن الخَيْرِ، ويَعْصِي ويُمَدُّ له في العَطاءِ.

وجاءَ في مُسنَدِ أحمدَ مِن حديثِ عُقْبةَ بنِ عامِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٤٥).

(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ٢٨).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٢٥٤).

«إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ قَرَأَ قولَ الحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤- ٤٥]»[(١)].

وتَكمُنُ خُطورةُ هذا الذَّنبِ -وهو الأَمْنُ مِن مَكْرِ اللهِ- أنَّه مِن صِفاتِ وسِماتِ وأَخْلَاقِ الكافِرينَ المُنافقينَ الخاسرينَ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧ - ٩٩].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن قَوْمٍ كانُوا على الشِّركِ، وأَظْهَرُوا الشِّرْكَ والكُفْرَ باللهِ، وهم في أَعْماقِ البِحارِ، فأَرْسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم الرِّيحَ، فقالُوا: يا رَبَّنا آمَنَّا بِكَ، ووَحَّدْناكَ، فَنَجِّنَا، فلَمَّا نَجَّاهُم أَشْرَكوا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾[الإسراء:٦٨ - ٦٩].

وفي حَديثٍ للتِّرْمِذِيِّ في سُنَنِهِ: قالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ، وبِمَا جِئْتَ بِهِ، فهل تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قال: «نَعَمْ؛ إِنَّ قُلُوبَ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥).

أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[١].

فقُلوبُنا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يَأْمَنُ العَبدُ مِن أنْ يُصبِحَ مُؤْمِنًا ويُمسِيَ كافِرًا، أَوْ يُمسِيَ مُؤْمِنًا ويُصْبِحَ كَافِرًا، فأينَ السَّائِلونَ الَّذينَ يَسْأَلونَ رَبَّهُمْ على الدَّوَامِ: يَا مُثَبِّتَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنا عَلَى دِينِكَ؟!!

وَجَاء عندَ التِّرْمِذيِّ في سُنَنِهِ، مِن حَدِيثِ أَنَسٍ: دَخَلَ ﷺ عَلَى شَابٍّ وهُوَ في المَوْتِ -أي: يَحْتَضِرُ- قال له النَّبيُّ ﷺ: «كيفَ تَجِدُكَ؟» قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، واللهِ إنِّي أَرْجُو اللهَ، وإنِّي أَخَافُ ذُنوبِي، قَالَ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[٢].

فهذا سيُفارِقُ الدُّنيا، ولَكِنْ يُحَلِّقُ بِهَذَينِ الجَناحَينِ: جَناحِ الرَّجاءِ، وجَناحِ الخَوفِ، فالمُؤْمِنُ يَعمَلُ ويَخافُ، والمُنافِقُ لا يَعمَلُ ويَأْمَنُ.

وفي حديثٍ عند البُخاريِّ، قالَ ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ، يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ المُنَافِقَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»[٣]، فالمؤمنُ يَخافُ مِن المُعاقَبةِ والمُؤَاخَذةِ، والمنافقُ لا يُبالي بالذَّنبِ، ولا بالعُقوبةِ.

وقد جاءَ في كِتابِ «الزُّهْدِ» لابْنِ المُبارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ عنِ الحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوله: إِنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الجنائز، باب، رقم (٩٨٣)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٦٣٠٨).

المُؤْمِنَ جَمَعَ إحسانًا وشَفَقَةً، وإِنَّ المُنافِقَ جَمَعَ إساءةً وأَمْنًا[1].

وفي مِثلِ هذه الأَيَّامِ، لا يَمُرُّ يَوْمٌ إلَّا ونَسمَعُ بزِلزالٍ في بلدٍ ما، وبهزَّةٍ في إقليمٍ ما، وفي المُقابِلِ نَسمَعُ مَن يَقولُ: نحنُ في بِلادِنا آمنونَ، بِلادُنا بَعيدةٌ عن هذه الأَحْزمةِ الَّتي تَحدُثُ فيها الزَّلازِلُ والهِزَّاتُ، وهذه صُورةٌ مِن الأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ.

ويَنْبَغي أنْ يُقالَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١]، ويَنْبَغي أنْ يُقالَ: لِنَتَّعِظْ بما يَحصُلُ لغَيْرِنَا، فنَعود إلى رَبِّنا، ونَتوب مِن ذُنوبِنا، ونَأْوِي إلى رُشْدِنا؛ فإِنَّ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جُنودًا لا يَعْلَمُها إلَّا هو، إنْ أَخذَ أُناسًا بالزَّلازِلِ، فهُناكَ جُنودٌ أُخَرُ، وما يُدْرِيكَ ماذا يَفعَلُ اللهُ بالنَّاسِ لو كَثُرَ الذُّبابُ في بَلَدٍ؟! أَوْ كَثُرَ البَعُوضُ في بَلَدٍ؟! أَوْ كَثُرَتِ الثَّعابينُ في بلد؟! أو ارْتَفَعَ مَنْسوبُ المِياهِ في بَلَدٍ؟! أَوِ استَمَرَّ نُزولُ المَطَرِ على بَلَدٍ؟!

فهذِه جُنودٌ لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ، وقد ذَكَرَ رَبُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ العَنْكَبوتِ، عَدَدًا مِن الأُمَمِ مَرَّتْ، وكُلَّما عَصَتْ أُمَّةٌ عاقَبَها بِذَنْبٍ مُختَلِفٍ، إلى أنْ قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٠].

فبالذَّنْبِ يُؤَاخَذُ، لكنْ يُؤَاخَذُ بقَدْرِ هذا الذَّنْبِ، وبما يَتَناسَبُ مع هذا الذَّنْبِ، وأما الحاصِبُ: فهُو حِجارةٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (٩٨٥).

وفي مِثْلِ هذا المَقامِ، وفي مِثْلِ هذه الأَحْوَالِ، على العَبدِ أنْ يَفْعَلَ شَيْئَيْنِ:

أوَّلًا: أنْ يُراجِعَ نفسَهُ، وأنْ يُقلِعَ عن ذَنْبِهِ، وأَنْ يَنْدَمَ عليه.

ثانيًا: أنْ يَسْأَلَ المَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى السَّلامةَ والعافيةَ، فما سَأَلَ العِبادُ شَيْئًا أَعْظَمَ مِن العافيةِ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدّمةُ	٥
١ - الحسَد	٧
تعريفُ الحسَد	٧
داءُ الحسَدِ سوءُ أدبٍ مع اللهِ عَزَّوَجَلَّ	٧
تحذيرُ النبيِّ ﷺ من الحسد	٨
أعظمُ دواعي الحسَد في المجتَمَعات	٨
أسبابُ وُقُوع الحاسد في الحسَد:	٩
السببُ الأوَّلُ: كَراهيةُ المَحسودِ وبُغضُهُ والحِقدُ عليهِ	٩
السببُ الثَّاني: الكِبرُ والإعْجابُ بالنَّفسِ والغُرورُ	١٠
العُقوباتُ التِي تَصِل إلى الحاسِد	١١
٢ - الإصْرارُ على الذَّنْب	١٣
أسبابُ إصرارِ العَبْد على الذَّنْب	١٥
السببُ الأوَّلُ: أنَّهم ما شَبِعوا مِن لَذَّةِ الذَّنبِ	١٥
السببُ الثاني: أنَّهم يُسوِّفونَ	١٥
السببُ الثالثُ: صُحبةُ أهلِ السُّوءِ والفُجورِ	١٦

٣- الإسرافُ والتَّبْذِير ١٨
صُور التَّبْذير مُتعدِّدة: ١٨
الإسرافُ في المَطاعِمِ والمَشاربِ والملابسِ والمَفارِشِ ١٨
الإسرافُ في تَصريفِ الشَّهوةِ في الحرامِ ١٩
الإسرافُ في الإنفاقِ ٢٠
الإسرافُ في المعاصي والذُّنوبِ ٢٠
الإفسادُ في الأرضِ ٢١
الإسرافُ في الإعْراضِ عن دينِ اللهِ ٢١
بيانُ مُثلَّث الحِرْمان ٢١
الحِرْمانُ الأوَّل: تَوعَّدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُسرِفَ بحِرمانِهِ مِن مَحبَّتِهِ ٢١
الحِرْمانُ الثَّاني: حِرمانُ الهدايةِ ٢١
الحِرمانُ الثالثُ: حِرمانُ النَّجاةِ ٢٢
٤- الجزع والتسخُّط ٢٣
الجَزَعُ حالةٌ إنْسانيَّةٌ ٢٣
المُصيبةُ واحِدةٌ، فإذا جَزِعَ صاحِبُها صارَتِ اثْنَتَينِ ٢٤
يَحصُلُ الجَزَعُ لِثَلاثةِ أَسْبابٍ: ٢٥
السَّبَبُ الأوَّلُ: دوامُ استِذْكارِ المُصابِ ٢٥
السَّبَبُ الثَّاني: كَثْرةُ الشَّكْوى. ٢٦
السَّبَبُ الثَّالِثُ: هو ما يَظُنُّهُ الجازِعُ مِن أنَّ مُصيبَتَهُ سَتَدومُ ٢٧

مَنِ اعْتَزَّ عَزَّ، ومَنْ تَشافَى شُفِيَ ٢٧
٥- دُنُوُّ الهِمَّةِ ٢٨
مُقوِّمَاتُ عُلُوِّ الهِمَّةِ ٢٩
أسبابُ دُنُوِّ الهِمَّةِ..... ٢٩
الأوَّلُ: اقترافُ المعاصي والذُّنوبِ ٢٩
الثاني: الخوفُ والوَهَنُ ٣٠
الثالثُ: العيشُ على الأمانيِّ ٣١
الرابعُ: مُصاحَبةُ الكُسالى البطَّالينَ ٣٢
الخامسُ: تَركُ الدُّعاءِ ٣٢
٦- حُب الرئاسة والتَّطلع إلى الصَّدارة..... ٣٤
مَظَاهِر مُحبِّي الرِّئاسة والصَّدارة..... ٣٦
المَظهَرُ الأوَّلُ: الإلحاحُ في طَلَبِها ٣٦
المَظهَرُ الثاني: أنَّك تَسمَعُ له جَعْجَعةً ولا ترى له طَحينًا..... ٣٦
المَظهَرُ الثالثُ: أنَّه يَتَتَبَّعُ عيوبَ خُصومِهُ ومُنافسيهِ ويُبرِزُها للعَلَنِ..... ٣٦
المَظهرُ الرَّابعُ: مَجالِسُهم ومَكاتِبُهم وقُلوبُهم مَفْتوحةٌ قَبلَ الحصولِ عليها
فقَط..... ٣٦
٧- الرِّياء ٣٩
تعريفُ الرِّياء..... ٣٩
آثارُ الرِّياء: ٤١

الأوَّلُ: أنَّ العملَ يَحبَطُ ٤١
الثَّاني: أنَّ المُرائيَ إنَّما يَتشبَّهُ بالمُنافقينَ ٤٢
الثَّالث: الفَضيحةُ في الآخِرةِ ٤٣
٨- الظلم ٤٤
الظُّلمُ أنواعٌ ثلاثةٌ: ٤٤
الأوَّلُ: نوعٌ يُقصَدُ به الشِّركُ ٤٤
الثَّاني: نوعٌ يُقصَدُ به ظُلمُ العبدِ نفسَهُ بالمعاصي والذُّنوبِ ٤٤
الثَّالث: نوعٌ يُقصدُ به ظُلمُ العِبادِ، والتَّعدِّي على حُقوقِهم ٤٥
حَبَس الظالم نَفْسَه في مُثلَّث الحِرمان ٤٦
الواجبُ فِيمَن كان ظالمًا لغيرِهِ ٤٩
٩- جَرحُ المَشاعِرِ، وكَسرُ الخَواطِرِ ٥٠
جَرحُ المَشاعِرِ له أَثَرٌ شَديدٌ، ووَقعٌ على نَفسِ المَرءِ أَكيدٌ ٥٠
جَرحُ المَشاعِرِ يَكُونُ باللِّسانِ وبالفِعلِ ٥٠
هناك نُفوسٌ لها اعتِباراتٌ أُخرى ٥١
مُراعاةُ مَشاعِرِ ذَوي الحاجاتِ مِن الفُقَراءِ والمَساكينِ والأَيْتامِ ٥٢
هُناكَ صُوَرٌ مُتَعَدِّدةٌ لجَرحِ المَشاعِرِ، منها: ٥٢
الصورةُ الأُولى: مِمَّا يَجرَحُ المَشاعِرَ عَدَمُ رَدِّ السَّلامِ ٥٢
الصورةُ الثانيةُ: الغِلظةُ، والفَظاظةُ ٥٣
الصورةُ الثالثةُ: النَّصيحةُ في العَلَنِ ٥٤

الصُّورةُ الرَّابعةُ: المَنُّ بالعَطيَّةِ ٥٤
١٠- الكَسَلُ والعَجْزُ والتَّراخي والفُتُور ٥٦
الكَسَلُ هو التَّثاقُلُ عَمَّا لا يَنْبَغي التَّثاقُلُ عنهُ ٥٦
الكَسَلُ آفةُ الطَّاعةِ ٥٨
أَربعُ وصَايا للقَضاءِ على الكَسلِ ٥٨
الوَصيةُ الأُولى: الذِّكْرُ، والوُضوءُ، والصَّلاةُ عندَ الاستيقاظِ مِن النَّومِ قبلَ صَلاةِ الفَجر ٥٨
الوَصيَّةُ الثَّانيةُ: احْذَرْ مُصاحَبةَ الكُسالَى ٥٨
الوَصِيَّة الثَّالثةُ: تَعَرَّفْ على أُجورِ الأَعْمالِ ٥٩
الوَصيَّةُ الرَّابعةُ: أن تَدْعو اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنْ يُعيذَكَ مِنَ الكَسَلِ ٦١
١١- إيذاءُ الجارِ ٦٢
وَصِيَّتُهُ ﷺ في آخِرِ لِقاءٍ جَمَعَهُ بالصَّحابةِ الكِرامِ ٦٢
جَوائِزُ مَن أَحسَنَ إلى جارِهِ: ٦٣
هناك ارتباطٌ طَرديٌّ بين الإيمانِ الواجِبِ والإحسانِ إلى الجارِ ٦٣
الإحسانُ إلى الجارِ سَبَبٌ في عمارةِ الدِّيارِ ٦٤
مِعيارُ الخَيريَّةِ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُرتَبِطٌ بالإحسانِ إلى الجارِ ٦٤
عُقوباتٌ ذَكَرَها النَّبيُّ ﷺ يُصابُ بها مَنْ آذَى جارَهُ: ٦٥
فمُجَرَّدُ عَدَمِ الأمنِ قَبْلَ وُصولِ المَخاطِرِ سَبَبٌ في عَدَمِ دُخولِ الجَنَّةِ ٦٥
الجارُ تَرتَفِعُ أَسهُمُهُ كلَّما حَسُنَتْ أَخلاقُهُ ٦٦

أوَّلُ خَصمَينِ يومَ القيامةِ ٦٦
١٢ - إساءةُ الظَّنِّ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٦٨
مَعنى إِساءةِ الظَّنِ باللهِ ٦٨
السَّببُ الرَّئيسُ في إساءةِ الظَّنِّ باللهِ ٦٨
إساءةُ الظَّنِّ باللهِ ذَنبٌ مِن أَعظَمِ الذُّنوبِ ٦٩
النَّاسُ بين ظَنَّينِ اثْنَينِ ٦٩
لسُوءِ الظَّنِّ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آثارٌ مترتبةٌ عَليه ٧١
الأَثَرُ الأَوَّل: الانحِرافُ، والوُقوعُ في الضَّلالِ والشِّركِ ٧١
الأَثَرُ الثَّاني: إساءةُ العَمَلِ ٧٢
الأَثَرُ الثالثُ: حُصولُ المَكروهُ ٧٣
حُسنُ الظَّنِّ باللهِ هو أنْ تَحذَرَ أنْ تَعتَقِدَ أمرًا سَيِّئًا ٧٣
١٣ - اللَّعنُ ٧٣
مَعنى اللَّعنِ ٧٣
اللَّعنُ كَبيرةٌ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ ٧٣
المُؤمِنُ لا يُجري اللَّعنَ على لِسانِهِ ٧٦
اللَّعنُ تَترَتَّبُ عليه أُمورٌ وآثارٌ سَيِّئةٌ: ٧٦
الأَثَرُ الأَوَّلُ: مَن لَعَنَ شَيئًا ربَّما عادَ اللَّعنُ عليه ٧٦
الأَثَرُ الثَّاني: إثمُ اللَّاعِنِ كإثْمِ القاتِلِ ٧٧
الأَثَرُ الثَّالثُ: أنَّ مَن أكثرَ اللَّعنَ نُزِعَت منهُ مَزايا التَّمَيُّزِ ٧٧

الأثَرُ الرَّابعُ: أنَّ اللَّاعِنَ قد تُصيبُهُ لَعنةُ اللهِ ٧٨
هَل يَلعَنُ الوَلَدُ وَالِدَيْهِ؟!..... ٧٨
١٤ - اتِّخاذُ الوَسائِطِ والشُّفَعاءِ عند الدُّعاء ٨٠
بَيانُ شُبهةِ مَن يَتخذُ وَسائِطَ وَشفعَاءَ للهِ تعالى والردُّ عليهم..... ٨٠
يومِ القيامةِ تَتَأَكَّدُ هذه الحقائقُ ، ويَظهَرُ عَجزُ هؤلاءِ الوُسطاءِ والشُّفعاءِ ٨٣
هناك عُقولٌ في الدُّنيا تَنبَّهَتْ لهذا..... ٨٣
الرَّاشِدُ المُوَفَّقُ الذِي تَأملَ في الدُّنيا وتَنَبَّه ٨٤
١٥ - النَّهيُ عَنِ الغَفْلَةِ ٨٥
تَحذيرُ اللهِ من الغَفلةِ..... ٨٥
أَخطَرُ ما في الغَفلةِ أمرانِ ٨٦
الأمرُ الأولُ: الختمُ على القَلبِ ٨٦
الأمْرُ الثَّاني: الصَّدُّ عن الحَقِّ..... ٨٧
عَلاماتُ الغَفلةِ: ٨٧
العَلامةُ الأُولى: التَّكاسُلُ عن الطَّاعةِ أو تَركُها..... ٨٨
العلامةُ الثَّانيةُ: استِصغارُ الذَّنبِ واحتقارُه..... ٨٨
العلامةُ الثَّالثةُ: إضاعةُ الوَقتِ فيما لا يُرضي اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى..... ٨٩
وصيَّتان للخلاصِ مِن داءِ الغَفلةِ: ٨٩
الوصيَّة الأُولى: لا تَصحَبِ الغافلينَ ٨٩
الوَصيَّةُ الثَّانيةُ: اللهَ اللهَ! في قيامِ اللَّيلِ..... ٩٠

١٦ - العُجْب ٩١
تعريف العُجْب ٩١
أنواعُ العُجْب ٩١
صُور لَمن أُعْجب بنَفْسه وعَمَله ٩٢
صُور لَمن سَلِم مِن داء العُجب ٩٢
الأحاديثُ النَّبويةُ في بيانِ خُطورةِ العُجْبِ ٩٣
دواءُ العُجْب ٩٥
١٧ - البُهتانُ ٩٦
صُورُ البُهتان ٩٦
تَعريفُ البُهتان ٩٧
البُهْتانُ: مِن أَعظَمِ الذُّنوبِ ومِن أكبرِ الكَبائِرِ ٩٧
البُهْتانُ في دائِرةِ الغِيبةِ ٩٨
إنْ ضَعُفْتَ عن ثَلَاثةٍ فعليكَ بثَلاثةٍ ٩٩
«حَسَبَ ما وَصَلَني» لا تُزيل التَّبِعة ٩٩
لَا تُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا تَسْمَعَ ٩٩
١٨ - تَرْكُ الصَّلاةِ ١٠٠
الصَّلواتُ الخمسُ فَرْضُ عَينٍ ١٠٠
أَمَر اللهُ تعالى بأَداءِ الصلاة فِي أيِّ حالٍ كان العَبدُ عليه ١٠١
أحاديثُ لِتذكيرِ كلِّ مَن فَرَّطَ وتَهاوَنَ وتَكاسَلَ عن أداءِ الصَّلاةِ ١٠٣

الحديثُ الأوَّلُ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ» ١٠٣
الحَديثُ الثَّاني: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» ١٠٣
الحَديثُ الثَّالثُ: «فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ» . ١٠٤
١٩- هَجْر القرآن ١٠٥
معنى: (حبلِ اللهِ): القُرآنُ ١٠٦
الرَّابِحُ المُوَفَّقُ: هُو الذِي يَستَمْسِكُ بكِتابِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ١٠٧
التَّرغيبُ فِي تِلاوةِ القُرآنِ الكريمِ ١٠٧
مَن يَتعامَلُ مع القُرآنِ أَرْبَعةُ أَصْنافٍ ١٠٧
لو طَهُرَتِ القُلوبُ ما شَبِعَتْ مِن كَلامِ اللهِ ١٠٨
الواجِبُ على المُسلِمِ: أنْ يَجعَلَ القُرآنَ الكريمَ بَرنامجًا في حياتِهِ ١٠٩
البُيوتُ التي يُقْرَأُ فيها القُرآنُ لها نورٌ ١٠٩
الوَصيَّةُ بأنْ نُعيدَ النَّظَرَ في عَلاقَتِنا بكِتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ١١٠
٢٠- الحَلِف بغَيْر الله ١١١
مِن صُور الحَلِفِ بغير الله ١١١
أحاديثٌ في النهيِّ عنِ الحَلِفِ بغيرِ الله ١١٣
الحَدِيثُ الأَوَّلُ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» ١١٣
الحَديثُ الثَّاني: «احْلِفُوا بِاللهِ، وَبَرُّوا، وَاصْدُقُوا» ١١٣
الحَديثُ الثَّالِثُ: «كُلُّ يَمِينٍ يُحْلَفُ بِهَا دُونَ اللهِ شِرْكٌ» ١١٣
الحَديثُ الرَّابعُ: «مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا» ١١٤

مَن حَلَفَ بغيرِ اللهِ ناسيًا فماذا يَفعَلُ؟..... ١١٤
٢١- الجَوْرُ..... ١١٦
التَّأكيدُ على مَسألةِ العَدلِ، والنَّهيِ عنِ الظُّلمِ والجَورِ ١١٦
الدُّنيا تَدومُ بالعَدلِ مع الكُفرِ، ولا تَدومُ بالظُّلمِ مع الإسلامِ..... ١١٨
مَيادينُ الجَورِ مُتَعَدِّدةٌ ١١٩
مَن وُفِّقَ إلى العَدلِ مَع مَن هو دونَهُ رُزِقَ العَدلَ مِمَّنْ هو فَوقَهُ..... ١٢٠
٢٢- الجَهل بالغاية مِن الخَلْق ١٢١
خُطورة ما يعيشه بعضُ أبناءِ المُسلمينَ في حالةِ اللأدري! ١٢١
خَلَقَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلْقَهُ لغاية العبادة ١٢٢
خلَق اللهُ الأرضَ لِحكمةٍ ١٢٣
خلَق اللهُ الجِبال لِحكمةٍ..... ١٢٤
خلَق اللهُ الأنعامَ والدوابَّ لِحكمةٍ ١٢٤
الكَوْن كُلُّه يَسجد لله ويَسبح ١٢٤
مصيرُنا يتحدَّد بحسب خُطواتنا على المنهج الصحيح..... ١٢٥
٢٣- الاستعجال..... ١٢٧
تَعريف الاستِعْجال..... ١٢٧
الاستِعْجال أداة الشيطان ١٢٧
أسباب الاستِعْجال..... ١٢٨
مَيادين التعجُّل كَثيرة: ١٢٨

١ - التعجُّل عند قراءة القرآن ١٢٨
٢ - التعجُّل عند الدعاء ١٢٩
صور الاستِعْجال في الدعاء ١٢٩
الصُّورةُ الأُولى: أنْ تَدْعُوَ اللهَ قبلَ أنْ تُثْنِيَ عليه وتَحمَدَهُ، وأنْ تَدْعُوَ اللهَ قبلَ أنْ تُصَلِّيَ على النَّبيِّ ﷺ ١٢٩
الصُّورةُ الثَّانيةُ: الدُّعاءُ على النَّفسِ في حالِ الغَضَبِ والطَّيْشِ والخِفَّةِ ١٣٠
الصُّورةُ الثَّالثةُ: أنْ يَدْعُوَ الإنْسانُ يَوْمًا أو يَومَينِ، أو عَشَرةً، أو شَهرًا، أو سَنةً، ثم ما يُستجابُ له، فيَترُكَ الدُّعاءَ ١٣٠
الصُّورةُ الرَّابعةُ: الاستِعْجالُ في الوُضوءِ ١٣١
الصُّورةُ الخامِسةُ: أنْ يَسْتَعْجِلَ في مَشْيِهِ، أوْ يَمْشي مَشْيَ المُتَماوِتِ البَطيءِ ١٣١
العَواقِبُ السَّيِّئَةُ وَالآثارُ الخَطيرةُ للاستِعْجالِ ١٣٢
٢٤ - النَّهي عنْ إضَاعةِ الوَقتِ ١٣٣
الوَقْتُ هو الحياةُ ١٣٣
أَهَمِّيَّةُ الوَقْتِ عند النبي ﷺ ١٣٤
أَعظَمُ ما تُشغَلُ الأَوْقاتُ ثَلاثةُ أُمورٍ ١٣٥
الأمْرُ الأَوَّلُ: الإكْثارُ مِن ذِكْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ١٣٥
الأمْرُ الثَّاني: الإكثارُ مِن الصَّدَقاتِ الجاريةِ ١٣٥
الأَمرُ الثَّالثُ: الإكْثارُ مِن العَمَلِ الصَّالِحِ ١٣٥
متى يَتَحَسَّرُ العَبدُ على فَواتِ الوَقْتِ ؟! ١٣٧

المَوضِعُ الأَوَّلُ: عندَما يُدرِكُ ويُعايِنُ مَلَكَ المَوْتِ، في ساعةِ الاحتِضارِ ١٣٧
المَوضِعُ الثَّاني: في القَبرِ ١٣٧
المَوضِعُ الثَّالثُ: في يَومِ القيامةِ، حينَما يَرَى العَبدُ ويُبصِرُ ويَسمَعُ ما كان يُوعَدُ في الدُّنيا ١٣٨
المَوضِعُ الرَّابعُ: حينَما يَدخُلُ الشَّقيُّ البَعيدُ جَهَنَّمَ -عِياذًا باللهِ- يَتَحَسَّرُ على فواتِ الأَوْقاتِ ١٣٨
٢٥- النَّهْيُ عن إفْسادِ البيئة ١٣٩
جوابُ إشكالٍ في حَدِيث: «**إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ القِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا**» ١٤٢
كم هو مُؤْلِمٌ أنْ تَرَى إنْسانًا عاقِلًا لا يَقومُ مِن مَكانِهِ إلا وقد تَرَكَهُ مُتَّسِخًا ١٤٤
٢٦- النَّهْيُ عن الاستِهْزاءِ بالدِّينِ وأهلِه ١٤٥
لِماذا يَسخَرُ السَّاخِرُ بالدِّينِ؟ ولماذا يَقَعُ البَعضُ في الاستِهْزاءِ بذاتِ اللهِ؟ ١٤٦
لذلك ثلاثةُ أَسْبابٍ ١٤٦
السَّبَبُ الأَوَّلُ: جَهْلُ الفاعِلِينَ بعَظيمِ جُرْمِهم ١٤٦
السَّبَبُ الثَّاني: اللَّعِبُ والمُزاحُ، وربَّما رَغْبةً في الدُّنيا ١٤٧
السَّبَبُ الثَّالثُ: الحِقدُ والكَراهيةُ لأَهلِ الدِّينِ ١٤٧
لا تُجالِسَ السَّاخِرينَ ١٤٩
٢٧- النهي عن إفساد ذات البين ١٥٠
أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ ١٥٠

خطرُ إفسادِ العَلاقاتِ الزَّوجيَّةِ ١٥١
كيف تَتَصَرَّفُ إذا جاءَكَ النَّمَّامونَ؟ ١٥٣
٢٨- النَّهيُ عنِ الخِيانةِ ١٥٥
حَذَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن الخِيانةِ ١٥٥
أحاديثُ ليَتدَبَّرها مَن وَقَعَ في هذه المَعْصيةِ ١٥٦
الحديثُ الأوَّلُ: «هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابنِ فُلَانٍ» ١٥٦
الحَديثُ الثَّاني: «.. وَلَا تَجْتَمِعُ الخِيانةُ والأَمَانَةُ جَمِيعًا» ١٥٧
الحَديثُ الثَّالثُ: «.. وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ البِطَانَةِ» ١٥٧
الحَديثُ الرَّابعُ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ، مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَالخِيَانَةِ، والكَذِبِ» ١٥٧
الحَديثُ الخامسُ: «وَمَنْ اسْتَشَارَ أَخَاهُ المُسْلِمَ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ فَقَدْ خَانَهُ» .. ١٥٨
الحديثُ السَّادسُ: «المُسْلِمُ يُطْبَعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ غَيْرَ الخِيَانَةِ وَالكَذِبِ» ١٥٨
الحَديثُ السابعُ: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» ١٥٩
الحديثُ الثَّامنُ: «لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلَا خَائِنَةٍ» ١٥٩
الحديثُ التَّاسعُ: «وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ.. الخَائِنِ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ» ١٦٠
الخائِنُ مُتَرَبِّصٌ، يَنْتَظِرُ فرصةً سانِحةً ١٦٠
٢٩- النَّهيُ عنِ الشَّماتةِ ١٦١
تَعريفُ الشَّماتة ١٦١

مِن أكثرِ النَّاسِ شَماتةً الحاسِدُ..... ١٦٢
تَكْمُنُ خُطورَةُ الشَّماتةِ في أَمْرَيْنِ: ١٦٣
الأَمْرُ الأَوَّلُ: أَنَّه إِنْ عَيَّرَ وَشَمِتَ بِأَخِيهِ الَّذي ارْتَكَبَ ذَنْبًا فَإِنَّ شَماتَتَهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَنْبِ أَخيهِ. ١٦٣
الأَمْرُ الثَّاني: أَنَّ مَن شَمِتَ بغَيرِهِ عادَتِ الشَّماتةُ عليه، وأَصابَهُ ما أَصابَ مَنْ شَمِتَ به ولو بَعْدَ حِينٍ ١٦٤
٣٠- الأمن من مكر الله..... ١٦٦
خُطورةُ الأَمْنُ مِن مَكْرِ اللهِ أَنَّه مِن صِفاتِ وسِماتِ وأَخْلَاقِ الكافِرينَ المُنافقينَ الخاسرينَ ١٦٧
على العَبدِ في موضوعِ الأمن من مكر الله أَنْ يَفْعَلَ شَيْئَيْنِ: ١٧٠
أَوَّلًا: أَنْ يُراجِعَ نفسَهُ، وأَنْ يُقلِعَ عن ذَنْبِهِ، وأَنْ يَنْدَمَ عليه. ١٧٠
ثانيًا: أَنْ يَسْأَلَ المَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى السَّلامةَ والعافيةَ. ١٧٠
فِهرسُ المَوضُوعاتِ..... ١٧١